

طباعة . نشر . توزيع



مصطفى نجيب

حُماة الإسلام

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد

العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - امبابة - جيزة

تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيداع : ٩٧/٨٧٨٢

الترقيم الدولي : 977 - 5819 - 17 - 2

الغلاف : مجدى بكر

طبعة جديدة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

حُماة الإسلام

تأليف
المرحوم مصطفى بك نجيب

الجزء الأول

تقديم وتعليق
الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد



إلى القراء الكرام

كتب سيدى الوالد المرحوم « مصطفى بك نجيب » هذا المؤلف الجليل فى تاريخ أبطال الإسلام وحماته وقام بنشره فقيد الوطن المرحوم المبرور « مصطفى كامل باشا » .

ولما نفدت نسخه من المكاتب وألح عليّ كثيرون بإعادة طبعه رأيت براً بسيدى الوالد رحمه الله وبالقراء الأفاضل وبإذن حضرة صاحب العزة « على بك فهمى كامل » أن يظهر كتاب « حماة الإسلام » ثانية فى ثوبه القشيب مدبجاً بمقدمة جديدة كتبها إليّ خصيصاً من برلين فقيد البلاد وخليفة مصطفى كامل باشا المرحوم محمد فريد بك .

فإلى القراء الكرام أقدم كتاب « حماة الإسلام » ، ولا أنسى أن أقدم واجب الشكر إلى الأستاذ الشيخ محمد سعيد الرافعى الكتبى بمصر بما قام به فى إعادة طبع الكتاب مرة ثانية ليد القراء ، والله الموفق إلى أقوم طريق .

١٤ أبريل سنة (١٩٢٣م) .

سليمان نجيب

❊ ❊ ❊



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله وأصلى على نبيه الكريم سيد الأنبياء والمرسلين ، وبعد فقد رأيت أن المسلمين فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم محتاجون إلى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة أكثر من غيرهم مفتقرون إلى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسبل نجاح أسلافهم ، غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم تلك المفاخر التى يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للإتيان بمثلها ، وعلمت من سياحاتى فى بلاد الغرب ورحلاتى إليه أن أهم الأمور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للأوطان مناراً عالياً ، وشيدوا من المجد صروحاً لا تنالها يد الحدثان ، وأقاموا للعلم والفضيلة بنياناً وأى بنيان ، وأن للقوم فى ممالك أوروبا حرصاً شديداً على تلك السير فتراهم يباهون بها الأمم ويجعلونها لأبنائهم وناشئيهم الدروس الأولى والقصص التى بها يتفكهون ومنها يتعلمون .

فدفعتنى محبة الإسلام ورغبتى الأكيدة فى خير بنيه ورفعة أهله إلى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع تراجم عظماء الرجال فى الإسلام تنبيهاً للغافلين ، وإرشاداً للجاهلين ، وإحياء لتلك المآثر الباهرة والسير العاطرة ، فأجاب الدعوة حباً للخدمة العامة ، واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصاً لوجه الله الكريم .

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى اللواء تحت عنوان « حماة الإسلام » ، فكان لها من الدوى والرنين ما لم تنله أبدع رسائل المنشئين ، وأجود منشآت الكاتبين ، مما حبب إلينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الأمة الإسلامية الكريمة عساها إذا ذكرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيا منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة .

والله المسئول أن يجزى المؤلف خيراً ويحقق ما نؤمل من عز وارتقاء للإسلام والمسلمين .

مصر فى (٤ ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ) .

مصطفى كامل



عثرة الإسلام بعد نهضته

« جاء بجريدة الشعب الغراء بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٢هـ/ ٢١ يوليه سنة ١٩١٤م » .

« تفضل صاحب العزة الأستاذ المحقق محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى ، فكتب مقدمة موجزة بليغة لكتاب حماة الإسلام « تأليف فقيد العلم والوطنية المصرية المؤرخ الكبير المرحوم مصطفى بك نجيب وكيل قسم الإدارة سابقاً بنظارة الداخلية ، وهو كتاب تاريخى جليل ذو شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، وكان قد طبعه صديق المؤلف فقيد مصر والشرق المغفور له مصطفى كامل ، فنفد جميع ما طبع منه .

والآن قرت عزيمة حضرة الأديب الألمعى الفاضل سليمان افندى نجيب على إعادة طبعه وطبع غيره من مؤلفات والده الشائقة بواسطة بعض المكاتب الشهيرة فى القاهرة ، فرأينا تتميماً للفائدة وتنويهاً بفضل مؤلف هذا السفر المحكم أن ننشر هذه المقدمة قبل صدور الطبعة الثانية منه التى يرجى ظهورها قريباً » .

قال الأستاذ فريد بك - حفظه الله - :

كان افتتاح القرن الرابع عشر للهجرة النبوية مبدأ عصر محن ومصائب نزلت بالعالم الإسلامى ، فقصمت منه الظهر وفككت منه الأوصال وأنقصت من أطراف الدولة الإسلامية البقية الباقية ، وكادت تقضى بتقلص ظل الإسلام السياسى من هذا العالم ، لولا أن أتاح الله له عصبة ذات قوة وبطش قامت فى وجه المهاجمين له من كل طرف ، وبذلت المهج فى المحافظة على تلك البقية الباقية من أن يكون حظها حظ ما سلخ من الجامعة من الأقاليم والبلدان .

افتتح هذا القرن الهجرى ببسط فرنسا حمايتها على « بلاد تونس » بعد أن فتحت بلاد الجزائر من قبل وباحتلال انجلترا لوادى النيل بعد أن احتلت قبرص وسلمت البوسنة والهرسك للنمسا ، وأعقب ذلك ببضع سنوات معاهدة الجزيرة على أن تأخذ فرنسا مملكة مراكش أجراً على عدم معارضتها لاحتلال انجلترا للكنانة وما تبعها .

ثم ختمت هاته المصائب بالحرب البلقانية التى بلغ فيها الأعداء أبواب « فروق » ولم تقفهم عن الدخول فيها إلا أبطال العثمانيين الذين أسقطوا وزارة كامل المسببة لكل هذا الخراب ونصبوا مكانها وزارة البطل الشهير محمود شوكت باشا ، ولقد أفضت هذه الكارثة إلى ضياع بلاد ألمانيا التى جعلتها أوروبا أو بالأحرى دول التحالف الثلاثى إمارة مستقلة يحكمها أمير مسيحى توطئة لتجزئتها فيما بعد بين إيطاليا والنمسا ، وإلى تقسيم مقدونيا بين اليونان والصرب والبلغار ، حتى لم يبق للدولة العثمانية فى أوروبا إلا لسان صغير من الأرض تحده من الشمال مدينة أدرنة العاصمة القديمة لدولة آل عثمان التى لم يستردها العثمانيون من البلغاريين إلا بعد أن ارتكب الأخيرون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من الفظائع والمنكرات والفضائح والموبقات .

ولقد صدق من قال : « رب ضارة نافعة » ، لأنه إذا كانت نتيجة هذه الحرب سيئة من الوجهة المادية ، فإنها أسفرت عن نتائج حسنة عظيمة من الوجهة الأدبية، إذ كانت سبباً فى ظهور ما تكنه قلوب المسلمين فى جميع الأقطار من الميل الشديد لدولة الخلافة والتعلق الثابت بها والمحافظة على ولائها ، وإن كان هناك فريق من الخوارج يعملون على التفريق بين عناصرها فهم لا شك خاسرون.

إنه فى مثل هذه الأونة التى يتحتم فيها تقوية روابط الأخاء والتحالف السياسى بين المسلمين يجب على الكتاب الصحفيين والمؤلفين أن يبينوا للعالم الإسلامى فضل الاتحاد وما سببه للإسلام فى مبدأ ظهوره من رفعة وقوة ومضار التفرقة وما جرته عليه من الخراب والدمار ، وأن ينصحوا للمسلمين جميعاً بالالتفاف حول خلافة آل عثمان ليكونوا عوناً لها على دول الصليب المتألبة عليها قاصدة أن لا يبقى للإسلام دولة مستقلة يعتز بها .

وممن كتبوا وأجادوا فى هذا الموضوع وأظهروا جلياً مضار الانقسام المرحوم مصطفى بك نجيب ، فقد أتى فى كتابه « حماة الإسلام » على فلسفة التاريخ الإسلامى مبيناً أسباب ارتقائه فى عهده الأول ودواعى انحطاطه بعد أن دب الشقاق بين ملوكه وحكامه وطمع كل منهم فى الاستقلال بما ولى عليه من البلاد، وقد سار المرحوم فى كتابه على الخطة المثلى التى انتهجها المؤلف الفرنسى «مونتسكيو» فى مؤلفه أسباب ارتقاء وانحطاط دولة الرومان ، وهى الطريقة المفيدة

التى يجمل بالمؤلفين فى هذا الباب أن يسيروا عليها إن أرادوا النجاح فى تنبيه أفكار المسلمين إلى ما يحيق بهم ويتهددهم فى كل وقت من الأخطار ، أو رغبوا فى إلفات أنظار الأمراء المسلمين إلى ما يجلبونه على الإسلام من الضرر بسعيهم فى الانفصال عن الجامعة العثمانية التى تمثل فى هذا الحين الجامعة الإسلامية .

ولله در ولد المؤلف الذى عرف قدر مؤلفات والده النفيسة ، فشرع فى إعادة طبعها ، ولا غرابة فى ذلك ، فإن هذا الشبل من ذاك الأسد ، (وقد يخرج الفرع شبه الأصل للناس) .

وفق الله المسلمين إلى إدراك حقائق أحوالهم ، وهدى أمراءهم سواء السبيل .

محمد فريد

* * *



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقـــدمة وتعريف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه .

وبعد :

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الإنسانية مكاناً صدراً ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التى تصدر فى الشرق والغرب على السواء وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، كانت المؤلفات فى التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخى وآثار وسياسة ومذكرات تكون خمس المكتبة العالمية ، وفى أيامنا هذه - ورغم اتساع ميادين المعارف ، وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها - لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانباً ضخماً مما ينشر كل عام ، وخاصة إذا أضفنا إليها ذلك النوع الجديد من الكتب الذى يؤلفه نفر من أذكياء أهل الصحافة والأدب عن حوادث التاريخ الجارى Current History ورجاله ، ويكفى أن نشير إلى العدد الضخم من المؤلفات التى صدرت خلال السنوات الأخيرة عن قضايا فلسطين وفيتنام والأمن الأوروبى والاستعمار الجديد والشيوعية والاشتراكية وتحرير العالم الثالث .

فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم كتاب هام من كتب التاريخ الذى يلقى الضوء على بعض الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، وكذلك بعض القواد والحكماء سواء فى المشرق أو المغرب و« الأندلس » حتى عصر المرابطين بشىء من الدقة والإمعان ، وهذا الكتاب هو « حماة الإسلام » للمؤرخ والأديب مصطفى بك نجيب الذى يقع فى مجلدين ، فالجزء الأول يتناول الدعوة المحمدية



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمة المؤلف

إن الحكيم الذى ينصب نفسه لتربية الأمة يجب عليه أن يدخل بها فى كثير من أبواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الأخلاق ليتحقق من استعدادها الفطرى ، ويظهر له الوجه الذى تصبو إليه ، والموطن الذى تألفه ، والمقصد الذى تتوجه إليه حتى إذا دعاها إلى الولوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحاً لها لبته لأنه أصبح هو وشوقها عليها .

وقد رأينا أن الذين نصبوا أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب ، فأخذوها بالرفق والدعوة للخير ، ثم واجهوها بالزجر والإعنات ، وضربوا لها الأمثال ، وحذروها عواقب ما هى فيه ودعوها إلى محاذاة الأمم ومجاراتها ، وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة ، ثم رأينا ورأوا أنهم على طول هذا الزمان لم يصلوا إلى كل ما أرادوا ، بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادئ الشريفة التى نهجوها وأرادوها .

تحقق لهم أنهم كلما اجتهدوا فسدّوا عليها باباً من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبواباً من المفاسد ولم يأمن فيها العثور ، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق إلا قليلهم .

ظهر لهم أن الأمة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها ، بل هى فى مهب ريح الأغراض سائرة مع كل قائد ، وعلى الخصوص لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى أصبح منطلياً على أكثرها ، فما أسرع أن تلبيه إذا دعاها وتضافره إذا سألها .

ثبت لهم أن فى الأمة عدداً عظيماً نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم ، بل نسوا الله

فأنساهم أنفسهم ، فلا بد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له فى القلوب رنة ، وفى النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة .

تبين لهم أن فى حواس الأمة خدراً جعلها لا تتأثر لمصابها ، كصاحب العاهة الذى تعيره الصبيان بها ، فيتألم منهم فى أول أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ريثما يعرف أن الناس تسامعت بعاهته واشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه .

ولا عجب فى هذا لأن فقدان الفضائل وارتكاب أضدادها ، وسلوك الطرق المبتدعة ، وانتقاص الأخلاق ، ونسيان العوائد الجميلة ، والإفراط فى أسباب الحضارة من الرياش والترف ، والتناهى فى عدم القناعة ، بدّل الخلق من أصله ، وحول العالم بأسره ، وكأنما خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث .

نعم ، يجب على الناصح أن ينادى فى الأمة بذلك الصوت من غير أن يدعوه حالها لليأس ، أو يسد عليه باب الأمل ، أو يقطع عنه طريق الخير ، أو يمانعه فى وصول النفع ، فإن أبواب الصلاح لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الأمين، والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع إن شاء الله .

وإن من أبواب التربية التى لم تقرع ، وطرقها الجسيمة التى لم تسلك ، وشرعتها الغزيرة التى لم تقصد : دعوة الأمة للنظر فى ماضى أمرها وأولية شأنها لتعلم من هى عساها تخجل من أن تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف ، عساها تأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه ، ولّى ملكاً فلم يحسن سياسته ، ورزق سعة من المال فلم يدبر أمر تنميته .

هذا الباب من أحسن الأبواب التى تثقف أفكار الأمة وأقرب ما تتربى على خيره طباعها ، فإن تذكيرها بمجدها القديم وتمثيل عزها السالف لها وتشخيص مجدها الشامخ أمام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة .

أحسن رادع للإنسان عن شهواته أن يلتفت وراءه فيرى فى أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم إلا مجداً أقاموه وعزاً شادوه ، وشرفاً حفظوه ، وأكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه وأجداده ، حتى تسترت عنه كرامة أخلاقهم وتحجب عنه

جميل طباعهم ، ولم يذكره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة ، أنه لا يأنف أبداً من إتيان الدنيئة وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والأخلاق الطاهرة .

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين - خصوصاً رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ولا يغضون عن فرصة - إذا فتحوا بلدة إسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها فأنسوهم دينهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم واستبدلوهم بذلك شيئاً آخر ، فتراهم إذا نسوا تاريخ حياتهم وأشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى ، وشبت النفوس على ما سيقت إليه ، وبدت على الأمة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عوائدها وتقربوا من تلك الأمم الطارئين بكل طريقة ، وابتعدوا عن ذلك الأصل الشريف الذى هم منه .

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة ، وفلّ حدها ، ووهن سلطانها ، وتتداعى للتلاشى والاضمحلال ، وينتقص من عمرانها ، ويندرس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عوائدها الشريفة .

ثم تتناهى الأمة فى الفجور وتتفانى فى البغى والضلال حتى تعود باللائمة على أصل دينها وعوائدها وأخلاقها . تقول وهى لا تستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها : إنها ما أخذت إلا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة فى المآخذ والمتارك يودون من صميم أفئدتهم أن لو استبدلوا بطباعهم وعوائدهم شيئاً آخر ليخرجوا من ذلك الجنس ، كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية ، ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الإسلام كالأندلس وغيرها .

عذر أولئك أنهم يغدون ويروحون بين رجلين : إما عدوّ لهذه المِلّة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة (كبعض فلاسفة هذا الزمان) ، وإما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيئاً لا خيراً ولا ضراً (كأغلب شبان هذا العصر) .

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ويتجنبون القرابة لأمته ومِلّته ، لأنهم أقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله ، لا يعلمون وهم أهله مكرمة له يعدها المنتسب منهم إليه مفخرة إذا نازعه منازع فى الانتساب إليه .

ينبغى لهم أن يتألموا من أن يكونوا مسلمين ، لأنهم لا يدركون للمسلمين فتحاً أبلوا فيه بلاء حسناً ، ولا يعرفون لهم حرباً ولا ضرباً ، ولا يتحققون فى أى بقاع الأرض نشأ المسلمون ، وفى أى جهة كانوا شرقاً أم غرباً ، ولا يحصون لهم عدداً ليعلموا أنهم وهم على قلتهم فاجأوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم النازحة فأنزلوا حماتها من عروشهم وبثوا فيها معالم دينهم وصيروها حنيفية بعد أن كانت جاهلية .

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون أنهم قوم نشأوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الأودية ، عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة .

لا يعقلون أن جميع مكارم الأخلاق إنما هى منتزعة منهم مأخوذة عنهم ، وأن ما يدعيه المدعى من الخلال الحميدة : كالدعة ، والرحمة ، والشفقة ، والعدل والإنصاف ، والإحسان ، إنما هو مجاز بالنسبة له حقيقة بالنسبة إليهم ، وأن هذه الأمة جاهلية كانت أو حنيفية لم يفارقها مكارم الأخلاق : كحفظ الجار والجوار ، ومراعاة الشرف والذمة ، وإحقاق الحق ، وقول الصدق ، ومحاسن الأعمال ، وجميل الخصال .

من يعلمهم أن ملتهم هذه هى أول من تنافس أهلها فى الخير وتحدّوا غيرهم بخلال الكرم : كالعفو عن الزلات ، والاحتمال من غير القادر ، والقرى للضيوف ، وحمل الكل ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال فى صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحددون لهم من فعل أو ترك ، وكرامة أهل الدين ، والحياء من الأكابر وتوقيرهم وإجلالهم ، والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه ، وإنصاف المستضعفين ، والتبذل فى أموالهم ، والتواضع للمساكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد .

من لهم بأن يتحققوا أن ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هى أجمل وأكمل خلق السياسة ، حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة للأمم التى تحت أيديهم ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثاً ، وأن الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم .

من يدلهم أن رجال الدين الإسلامى كانوا خير مجتمع لتأسيس قواعد الحرية

والإخاء والمساواة ، وأن أهله هم الذين جابوا القفار ، وقطعوا الأودية ، وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به ، وأنه لم يزهر فى دولة إزهاره فى دولتهم ، ولم يعتز كعزته فى سلطانهم حتى تقوت حجته وانتصر لواؤه ، وأذعن الناس لقوته وأشرقت عقولهم بنور برهانه .

لا بد لهم من مذكر بذلك كله ، ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون للواء الدولة والمباشرون للأمر : إنهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ، ولم يرثوها عن كلالة ، وليتحققوا أنهم أهلها ، وأن الفضائل التى أخذت فى الذهاب عنهم والملك الذى صارت الأعداء ترتقب زواله من بين أيديهم إنما سببه: جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم، وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم، ورضوخهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب ، وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لا يدانيهم ، وحبهم تقليد سواهم ، واستبدالهم عوائد أممهم وأجيالهم بعوائد غيرهم .

لهذا ، قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى أن ننسق من أخبار هذه الأمة الشريفة المكرمة شيئاً نجعله مسطراً على صفحات « اللواء » المحمود مندمجاً فى تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده ، ثم برجال الدولة الأموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها ، وأظهروا فى الفتوح آيتها ، وأتموا بالوقوف على قدم الخير غايتها ، ثم ما كان فى الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها فى فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير فى تدوين الدواوين وإعلاء كلمة السلاطين ، وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك ، ثم ما كان من أعاظم رجال دولة الموحدين والملثمين ثم ما كان من مدنية الدولة الأموية بالأندلس وعجائب خلفائها فى الآراء والأفكار، ثم ما كان من الدولة التركية صانها الله لنصرة الدين واحترامه وتعزيز أهله وخلوها من بدعة مبتدعة أو شبهة مصطنعة ، وما كان من استطالتها على جميع النواحى والأمصار فى جميع الأقطار معقبين ذلك بما نراه من الحوادث صحيح العلل والأسباب فاتحين للقارئ فى ساحة الاعتبار باباً ، ياله من باب كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما فى هذا الجراب :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشــبه بالرجــال فلاح

ولا عار فى ذلك ولا شنار ، فإن هذا الباب لا يستحى أن يأخذ منه الملوك ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن نبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح ، وترزق الأمة بسببه بصيرة تتراجع بها لأولية أمرها ، فترى ما كان محتفاً بها من سياج العظمة ، وتتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال ، فتتشوق نفوسها لتجديده ، وإلا فهى مستحقة لما هى فيه ، فإنه إذا كان للعقاب أوقات مناسبة ولقبول الأذى نفوس مستحقة ، فأحق أمة بعقوبة الذل (أمة ذات مجد قديم لا تستحى من إضاعة مجدها) .

عساها لو نظرت فى ذلك تجتهد فى تهيئة نفسها لقبول العدالة التى تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها ، فإن من أهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره فى إيصاله إليه أبطأ وأهمل .

عساها تنظر فتجد فيها بقية من خميرة الملك والسلطان الذى لا يحتاج تأييدها إلا إلى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول علم الخلافة ، فتهب من رقدتها وتعمل فى ما فيه الخير والصلاح لنفسها .

وقد أخذنا على أنفسنا أن نكتب فى جريدة « اللواء » كل يوم جمعة من كل أسبوع سيرة عظيم من عظماء الأمة الإسلامية فكاهة بين أخباره ونكتة بين أغراضه وأسراره مبتدئين من يوم الجمعة خامس شهر محرم الحرام مفتتح سنة (١٣١٨هـ).

والله المعين على هذا العمل الذى لا نقصد به إلا وجهه الكريم ، وإعادة سلافة الذكر الجميل لأفعال حماة دينه القويم ، ودعوة إخواننا إلى النظر للمقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم ، وما صاروا إليه من الانقياد والتسليم ، فقد أشفى الحال على الخطر وأصبح ذئب المغرب متهيئاً للافتراس مستديم النظر حديد البصر ، ونحن إلى التعاضد والتناصر فى حفظ هذا الملك مفتقرون ، فإن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون .

مصطفى نجيب

* * *

(سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)

جعل الله سبحانه وتعالى النبوة فى بيت واحد لا يشترك فى فضيلتها مع أنبيائه أحد . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، فسيدنا محمد ﷺ هو المختار من ذرية سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهما السلام من أكرم بيت من مضر (٢) خلق الله الخلق ، فجعله فى خير خلقه ، وجعلهم فرقاً فصيره فى أحسن فرقة وبيوتاً ، فأحله فى أرفع بيت وأسماه وأشرفه .

« ابن عبد الله » : المعروف مكانه من بنى عبد المطلب ، من أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً : « آمنة » بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، تزوج بها عبد الله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء .

ما لبث عبد الله أبو رسول الله ﷺ أن مات وأمه حامل به حتى كانت الليلة التى تمخض بها الزمان ، وتكهنت بها اليهود ورصدتها الرهبان ، الليلة التى أراد الله أن يخرج الإنسان فيها إلى نور الفلاح من ظلمات الجهالة الليلة التى ابتهجت فيها الحظائر القدسية وازينت فيها السماء فوق زينتها بأشراق الغزالة ، استل فيها سيف الله من قرابه ، وانتشل فيها سهمه من إهابه ، وظهر ليثه من غابه ، وهطل غيثه من سحابه ، فتنادت الرهبان بظهور أكرم مولود فى هذا الوجود .

ولد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول (٢٠ أبريل سنة ٥٧١) من ميلاد المسيح عليه السلام فى زمن كسرى أنوشروان أشهر ملوك الفرس فى أيامه، ولذلك يقول ﷺ حاكياً عن نفسه: «ولدت فى زمن الملك العادل»(٣) .

ولد ﷺ يتيماً ولم يرث إلا خمسة جمال وبعض لقاح وجارية ، فتجافت

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) إحدى القبائل العربية القديمة .

(٣) ورد هذا الحديث فى طبقات ابن سعد ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وأسد الغابة لابن الأثير .

المرضعات عنه إلا حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ظئره ، لما أراد الله من تشريفها، فدّر لبنها وقد جف ، ولبن شارفها على حين لا يجد إنسان قطرة فى ضرع ، وأخصب الله بلاد بنى سعد ، ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها ، وهذا من إرهاصات نبوته ﷺ .

شب رسول الله ﷺ والله يكلؤه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، وأن يكون أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأعطفهم جواراً ، وأوجههم خلقاً ، وأرجحهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، والأخلاق التى تؤنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين ، لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ير كمالها فى بشر .

وكيف لا يسمونه بالأمين وما رأوا صبراً كصبره ، ولا حلماً كحلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشيرته ، ولا كتواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته إذا صمت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب نشأته ، ولا كقلة تلونه ، ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه ﷺ .

توفيت والدته فاحتضنه جده عبد المطلب ، فكان يجلسه معه فى ظل الكعبة بين أعمامه ، ثم مات فكفله عمه أبو طالب وكان كريماً ، غير أنه كان فقيراً ، بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان حاله ﷺ كحال أحد بنى عمه وصبية قومه، ويزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين ﷺ .

عاش بين قومه على هذا الحال بغير مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب باد يقوم بتهذيبه سوى طهارة العقيدة وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانىً الأدب التى يجد بسببها فى وجدانه الكريم شعوراً بالفضيلة وتلبية لندائها وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها وخلطاؤه أولياء الأصنام وخدامها ، وهو متحل بالأدب الإلهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الأيتام والفقراء خصوصاً مع بعده عن معتقد القوّام عليه ، كل هذا ليتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » [1] .

---

(١) ورد فى طبقات ابن سعد ، والسيرة النبوية لابن هشام .

خرج عمه إلى الشام فى ركب للإتجار فأخذه معه ، فلما نزل الركب بُصرى وفيها بحيرا الراهب علم أهل النصرانية وأمامهم فى علمهم الذى يتوارثونه كابراً عن كابر صنع لهم طعاماً ونزل من صومعته ، ولم تكن تلك عادته ، فلما أكلوا سأل بحيرا النبى ﷺ عن أشياء فى حاله ونومه وهيئته ، ونظر لعلامات فى بدنه الشريف ، ثم أوصى عمه أبا طالب أن يسرع فيقدم به مكة وحذره من اليهود .

تحدثت الناس بكرم أخلاقه وحسن خلقه وعظيم أمانته وصدق حديثه ، فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى مالها للشام ومعه ميسرة غلامها ، فرأى ظلل الغمام تظله من الشمس وهو يسير ، ثم شاهد من أمانته ما شاهد ، فلما قدما أخبر سيدته بأمانته وطهارته ويمن طائره وبما رآه وما ظهر له من البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور . وكانت خديجة امرأة حازمة ، فرغبت فيه بسبب ذلك لقرابته وسطته فى قومه ، وذكرت ذلك لأعمامه فخطبها له عمه ، وهى أم ولده كلهم إلا (إبراهيم ، فإنه من مارية) .

كان فى هذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه ، ويغر بزخارفها : رفه فى العيش ، وعون على بلوغ الأمل . ولكن الحال غير هذا ، وكلما تقدمت به السن نما فى قلبه حب الخلوة والانفراد إلى أن تجلى عليه النور الإلهى وانكشف له العالم بأجمعه .

ظهر الهدى الإلهى فى عمله ﷺ ، فأزال الفتنة من بين قريش ، وقد كاد تنازعهم يفضى إلى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه ، فاستدعى ثوباً وأخذ الحجر ، فوضعه فيه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم أرفعوه جميعاً ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبنى عليه .

بلغ سنه أربعين سنة إلا ستة أشهر ، فبدأت الرؤية الصالحة لا يرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله إليه الخلوة ، فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم الله العباد بكشف ما غاب عنه من مصالح البشر ، فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم

﴿ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ [(١)] ، كما وردت به الأخبار الصحيحة ، وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » ، فقالت خديجة : كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذع ، يا ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال : « أو مخرجيّ هم ؟ » ، قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم فتر الوحى فشقه عليه حتى عاوده بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾[(٢)] فقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى، فأول من آمن به من النساء: خديجة ، ومن الرجال : أبو بكر ، ومن الصبيان : علىّ ، ومن الموالى: زيد، ثم تتابع الوحى وتتابع دخول الناس فى الإسلام ، وكان أبو بكر محبباً سهلاً ، وكانت رجالات قريش تألفه ، فأسلم على يديه من وثق به .

دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، وفشا الإسلام وهم ينتحلون به ويذهبون إلى الشعاب فيصلون ، وأمره الله أن يصدع بما يؤمر ، فنادى فى الناس بأمره ودعا إليه (وكان بين ما أخفى أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه) .

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه ، وقارع أعداءه بالحجة وناضلهم بالدليل، وأبدى لهم نصحه وزجره ، وذكر آلهتهم بالسب وعابها ، وكل من حوله ممن أسلم مستخف ، وأعداؤه يردون دعوته وهم بادون ظاهرون ويرفضون رسالته ، وهم باغون معتدون سواء العامة منهم والخاصة ، يقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ﴾ [(٣)] ، وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة

---

(١) سورة العلق ، الآية : ١ .

(٢) سورة المدثر ، الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٣١ .

والسلطان فى قبيلهم لدعوة فقير أمى لا ينبغى أن يتطاول إلى هذه المقامات بالممكن من الكلام ، فكيف باللوم والتعنيف وسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها .

أجمعوا على خلافه وعداوته ، وقام عمه أبو طالب دونه محامياً يحدب عليه ويمنع وهو ماض على أمر الله لا يرده عنه شيء ، فلما رأت قريش ذلك مشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب يقولون له : إن ابن أخيك سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا ورسول الله على ما هو عليه ، مظهر لدين الله داع إليه ، فهالهم الأمر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وحض بعضهم بعضاً ، ومشوا إلى أبى طالب مرة أخرى يقولون الذى قالوه أولاً ويخبرونه بأنهم قد استنهوه ابن أخيه فلم ينهه ، وأنهم لا يصبرون على هذا الأمر العظيم ، فإما كفه عنهم أو نازلوه .

أصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم وبين خذلان ابن أخيه ، فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق ، ولكن القوة الإلهية أيدته فأيأسهم من نفسه وقال لأبى طالب : « يا عماه ، لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه » ، وشمل الإشراق النبوى عمه أيضاً فقال له : يا ابن أخى ، قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم فى دينهم ، وافترق أمر قريش فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى ، واشتد العذاب على المسلمين ، فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً .

صار النبى غريباً فى شعبه وقومه بعيداً عنهما ، يحول بينه وبين عشيرته ما هو أعظم من كل عظيم وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم ، وهم أبعد من أن يفقهوا دعوته أو يعقلوا رسالته وطفقوا يرمونه عند الناس ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر ، يرومون بذلك صدهم عن الدخول فى دين الله ، وجلسوا للناس فى المواسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه منه وذكروا له أمره ،

فأذاعوا الدعوة للدين من حيث أرادوا كتمانها وأعلنوا خبرها بين العرب وهم يبعدونهم عنها : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

ثم اشتد الأمر وأغرت قريش سفهاءها برسول الله ﷺ ، وانتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والإيذاء وتعاقدوا على قتله فى اللات والعزى ، ولم يبق رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمه الشريف ورسول الله ﷺ ظاهر بمظهر الحكيم فى تربية قومه بحال يدهش المشاعر ، إذ يجدون منه سلطاناً قاهراً فى حكمه عادلاً فى أمره شديد الحرص على مصالحهم رؤوفاً بهم فى شدتهم رحيماً فى سلطنتهم، وكيف لا تتحير الحواس وهم يرون قوة من ضعف وسلطاناً من عجز ، ولما من أمية ، ورشاداً من منبت جاهلية .

حارت قريش فى أمرها ، تعجب من صبرها على تسفيه أحلامها وشتم آبائها، وسب آلهتها وإهانة دينها ، فاجتمعت أشرافها فى الحجر يتشاكون الصبر على هذا الأمر ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر طائفاً بالبيت ، وكلما طاف غمزوه ببعض القول ، فوقف ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » ، فأخذت القوم حالة حتى ما منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع وأشدهم فيه وطأة صار يرفؤه بأحسن ما يجد من القول : (يقول : انصرف يا أبا القاسم ما كنت جهولاً) ، ثم يعودون على أنفسهم باللائمة ويذكرون ما بلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه، فبينما هم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا له وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم ؟ وهو يقول: « نعم » ، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فإذا أبو بكر دونه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول : ربى الله ، ووقف أبو جهل لرسول الله وشتمه ، وبلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه .

أرادت قريش أن تخاصمه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل ، فبعثت إليه عتبة ابن ربيعة ، وكان سيداً فى قومه ، فقال : إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٧٢ .

مضى من آبائهم ، فاسمع منى أموراً لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له رسول الله : « قل يا أبا الوليد » ، قال : إن أردت بالذى فعلت (مالاً) جمعناه لك ، أو (شرفاً) سودناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كان يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، فأسمعه آيات من سورة السجدة وسجد، فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به ، فقالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولاً ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، أطيعونى يا معشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، قالوا : (سحرك يا أبا الوليد) ، فقال : لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ، ونبعث إليه ففعلوا، فجاءهم حتى جلس إليهم فقالوا : إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت إلى آخر ما قال له عتبة ، فقال : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت لأطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ، فألجمهم بهذا الخطاب وأفحمهم بهذا الكلام .

فعلت قريش مع رسول الله ﷺ بعد هذا ما فعله كفار كل زمان مع أنبيائهم، فتطلعت لما هو أكبر كما هى العادة فى شره العقول ، وأخذت تفكر وتقترح وتطلب أشياء قضت الحكمة الإلهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لتنبسط ثراها ، وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها ، وتكلفه بأن يأتى بملك معه من السماء فيصادقه على ما يقول ، وتتهكم عليه بأن يسقط عليهم كسفاً من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلاً ، أو تكون له جنات ، وقصور ، وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه ، فانصرف رسول الله إلى قومه آسفاً لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه .

إن الناظر فى هذا الهذيان يحكم بأن الذى منع العرب من الإقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، لأنهم يرون فى كل وقت ويسمعون فى كل حال من

أحواله عجباً لم تجر به العادة أبداً ، وفيهم العقلاء وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل ، ومن يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك .

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ﷺ والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه فى الإخبار عن الله سبحانه وتعالى، فجاءهم رسول الله من الطريق الذى يشمخون فيه بأنوفهم ويتنافسون فيه بثمار عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم ، ويدعون أن جميع الناس لهم فى كل أبوابه تبع ، ألا وهو طريق البلاغة والفصاحة ، جاءهم بالقرآن وفيهم الشاعر المفلق والخطيب المصقع ، وهم أحكم خلق الله لغة وأشدهم عدة ، والكلام سيد عملهم ، فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله وتصديق رسالته يحتج عليهم وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه ، ينذرهم بقتل عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ،.ويدعوهم صباح مساء أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة منه .

كيف يمكن لأحد سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾(١) ، ولو كان من عند غير الله ، لكان من غَلبة الظن عند من له شىء من العقل أن لا تخلو الأرض من صاحب قوة مثله .

عجزوا وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم ، وذوى قرابتهم ، وتسفيه أحلامهم وتفسيق معتقداتهم ، وكسر أصنامهم . أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضون قوله ويفسدون عليه أمره ، ويسرعون فى تفريق أتباعه عنه صوناً للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الأوطان العزيزة المحبوبة ، وإنفاق الأموال الجزيلة ، إن هذا لبعض ما يعرفه عامة الخلق ، فكيف بقريش التى لها من جليل التدبير وصدق الرأى والعقل ما ضربت به الأمثال .

ما هذا العجز الظاهر ، وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام ، والحاجة تبعث

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

الحيلة فى الأمر الغامض المفقود ، فكيف بالظاهر الموجود ، محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين عاماً على الغلط فى الأمر الجليل ، ومحال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه .

أى دليل على دعوى النبوة بعد هذا ، وأى برهان على صدقه ﷺ أشد من أن يروا يتيماً فقيراً أمياً لا عون له ولا جاه ، وقد تربى بينهم وهو من أول نشأته وعقله متأثر بسماع ما يسمعه ممن يخالطهم منهم من حديث الوثنية ، فإذا به مبغض لها من مبدأ عمره من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، من قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال من قبل أن يرجعه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ثم يكون منه الذى كان .

يرون رجلاً منصرفاً بطبيعة الحال عن مناصب الملك والسلطان متأبياً عنهما ، وقد عرضا عليه ، « ومقابلة القائل بذلك بالإعراض والاعتراض » ، خالياً من الجند والمال والجاه والعون ، ثم ينهض وحيداً فريداً داعياً للتوحيد والاعتقاد بالله ، وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لأوثانهم ومقدار تنطسهم فى زندقتهم ومناوأتهم بمعبوداتهم ، أليس من فكر يفكر فى هذه القوة التى سمت بنفسه إلى أعلى عليين فجعلته داعياً مرشداً ولو كره الكافرون .

يرون داعياً أوذى بضروب الإيذاء وأقيم فى وجهه ما لا يذلل من الصعاب ، وعناية الله محيطة به ، ويرون المستجيبين له أخرجوا من ديارهم تسفك منهم الدماء ويفتنون وهم لا يفتنون .

يرون عارفاً بالله كما يجب أن يعرف مدركاً من أمر الدار الآخرة ما ينبغى أن يدرك مع كمال فى العقل ، ونور فى البصيرة ، فصل بهما اللذائذ والآلام فى هذه الدنيا ، وطرق الأجر والعقاب عليهما ، وجعل للإنسان شعوراً بيوم بعد يومه هذا ، وكل هذا الضرب من الكلام بعيد عن التخيل والفكر ، ولا بد له من هدى إلهى وفتوق فى البصر والبصيرة يؤديان إلى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الأمور الغامضة عن العقول الساذجة .

يرون حكيماً جاء لكل طائفة مزيلاً للرجس القائم بها مخلصاً لها من معارض الشرك المشتمل عليها ، يأمر الوثنيين بترك الأصنام والأوثان والمشبهة بالانصراف عن الأجسام والثانوية بالتوحيد والطبيعيين بالنظر إلى ما وراء حجاب الطبيعة

وأهل السيطرة بترك العقوق ليعلمهم أنهم لا يتفاوتون عن كل نفس إلا بما فضل الله من علم وفضيلة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

يرون ناصحاً يأمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، واحترام الدماء البشرية والأعراض ، والرحمة بالضعفاء ، وينهاهم عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، ثم يرون أنفسهم عباداً للأصنام (وهو يعبد الله) ، يأكلون الميتة ، (وهو بعيد عنها) ، ويأتون الفواحش (وهو برىء منها) ، ويقطعون الأرحام (ويصلها) ، ويسيئون الجوار (ويحسنه) ، ويسبون النساء ويسلبون الأموال ، (وهو يأمر بالكف عنهما) ، فكأنهم كانوا من عماء الجهالة بحال لا يكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل ، والحسن والقبيح) ، وهو بهذا الظهور عما هم عليه من صدق الأحلام ، ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) .

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بلداً (الحبشة) أصابوا به مأمناً وقراراً ، وأن النجاشى أكرم من لجأ إليه منهم ، وأن عمر بن الخطاب أسلم وأعز الله الإسلام بإسلامه ، وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه والإسلام أخذ يفشو فى القبائل ، فاجتمعوا واتئمروا وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب : أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم ، وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيداً لأنفسهم ، وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه (إلا أبا لهب) ، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل إليهم شىء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم ورسول الله يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس ، وحال رجال الله بينه وبين ما أرادت قريش من البطش به ، وإن همزوه أو استهزأوا به أو خاصموه ، نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعداوته منهم .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٥٦ .

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة ، وأن الله سلط الأرضة عليها ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال النبى ﷺ ذلك لأبى طالب فقال : « أربك أخبرك بهذا ؟ » ، قال : نعم ، فخرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا (وذكر ما قاله له رسول الله ﷺ) ، فهلموا إلى صحيفتكم ، فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا وتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله ﷺ ، فزادهم ذلك شراً ، وصنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا .

ثم أسرى برسول الله ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (وهو بيت المقدس إيلياء) ، فلما أخبر رسول الله ﷺ الناس بها عجبوا وقالوا له : وما آية ذلك يا محمد ، فدلهم على أشياء فى الطريق وأمارات ظاهرة سألوا عنها فوجدوها كما قال ، ولكن أبى الله أن يصدقوه وهو صادق ، أو يعلموا أنه على الحق وأنهم كاذبون .

ثم أقام رسول الله ﷺ على أمر الله محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والإيذاء والاستهزاء ، وقريش تتنقل معه فى طريق الأذى من باب إلى باب ، وتتقلب من فكر إلى فكر ، فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء إلى النفاق والرياء ، ونيل منى النفس بالكيد والمداهنة باقية على ما فيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور ، وإلا سواء شق عليها أن ترى مثل أبى بكر يقرأ القرآن ويبكى ، فما زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجراً خوف الفتنة وقطعاً لذريعة انتشار الإسلام بين العرب .

ثم ماتت خديجة وأبو طالب فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بموتهما ، ونالت قريش فيه من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، فخرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس النصرة من « ثقيف »، فلما عمد إلى سادتهم استهزؤا به وكذبوه ، فعاد إلى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه وأصحابه مستضعفون وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل ، فأتى « كندة » فى

منازلهم فلم يقبلوه ، و« بنى حنيفة » فدعاهم ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم ، وأتى « بنى عامر » فاستهزؤا به .

ثم كان الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار وعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج وعرض عليهم الإسلام فآمنوا به وصدقوه ، لأنهم وجدوه موافقاً لما أخبرهم به أهل الكتاب والعلم من قومهم وقدموا المدينة ، وذكروا لقومهم ما رأوه ودعوهم إلى الإسلام ، وفشا فيهم ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ .

كان العام المقبل فوافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وبايعوا رسول الله ﷺ ، وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن .

ثم تواعدوا مع رسول الله ﷺ ، فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاده يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وجاء رسول الله ﷺ ومعه العباس ، فبعد أن تكلم وتكلموا فى أن يحموه حمايتهم لنسائهم وأبنائهم ، وما هم بخاذليه ولا مسلميه أبداً ، أخرجوا منهم اثنى عشر رجلاً سماهم رسول الله ﷺ نقباء ، وقال لهم : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى - يعنى المسلمين - » ، قالوا : نعم .

ثم عرفت جلة قريش بالأمر وتنطست ووجدت الخبر كما ظنت ، فخرجت فى طلب القوم ، فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر ، وكلاهما كان نقيباً ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه إلى أن دخلوا به مكة يضربونه حتى استجار برجلين فأجاراه ، فانطلق ولحق القوم ، فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سليمة وشريف من أشرافهم ، وكان اتخذ فى داره صنماً من خشب ، فما زالوا به حتى كسره وأسلم .

علمت قريش بشيعة رسول الله وأنصاره وأدركت أنه مجمع على اللحاق بهم، وتحققت أن أصحابه من المهاجرين سبقوه ، فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فى ما تصنع ، فقالت : نحبسه ولا نخرجه ، ثم اتفقت على أن يقوم من كل قبيلة

فتى شاب جلد فيقتلونه جميعاً ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم .

أوحى الله إلى النبى ﷺ بكيدهم هذا ، فأمر علىّ بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده ، ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله على أبصارهم فوضع على رؤوسهم تراباً ، وأقاموا طول ليلهم ، فلما أصبحوا خرج عليهم « على » ، وعلموا أن النبى ﷺ نجا ، وكان رسول الله ﷺ خرج مهاجراً من خوخة فى دار أبى بكر .

تعددت معجزاته فى هذه الهجرة :

فمنها : أنه هو وأبو بكر دخلا الغار الذى فى جبل ثور بأسفل مكة ، فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف ، فوقف عند الغار وقال : هنا انقطع الأثر ، وإذ بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا ، ومنها أن سراقة اتبعهما ليردهما ، فلما رآياه دعا عليه رسول الله ﷺ فساخت قوائم فرسه فى الأرض ، فنادى بالأمان وقال : يا محمد ، ادع الله أن يخلصنى ولك علىّ عهد أن أرد عنك الطلب ، فدعا له فخلص (فعل ذلك معه مرتين أو ثلاثاً) ، فلما أراد أن يعود قال له رسول الله ﷺ : « كيف بك يا سراقة إذا سورت بسوارى كسرى ؟ » قال : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم » [١] .

ومنها : أنه لما وصل المدينة مرَّ بدور لبنى سالم وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى حارثة ، وكلما مر بدار لأحد من هؤلاء تلقاه رجال منها يرغبون أن يقيم عندهم وتبادروا خطام الناقة اغتناماً لبركته ، فما زالوا يتبادرون والنبى ﷺ يقول لهم : «خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، حتى أتت دار بنى مالك بن النجار ، فبركت حيث مسجد الرسول اليوم ، ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها ، ثم التفتت إلى مكانها الأول فبركت واستقرت ، ونزل رسول الله ﷺ وحمل أبو أيوب رحله إلى داره فاشترى المربد من بنى النجار بعد أن

---

(١) قال فى أسد الغابة فى ترجمة سراقة : فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة وألبسه إياها ، وقال له : ارفع يديك ، وقل : الله أكبر الحمد لله الذى سلبها كسرى وألبسها سراقة .

وهبوه إياه فأبى قبوله ، وبنى المسجد باللبن وعضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد ، وبنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله .

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه مالهم وعليهم ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل ، وبين أبى بكر الصديق وخارجة ، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك ، حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الأنصار .

ثم فرضت الزكاة فاستلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء، وتخلصت الصدور من الأحقاد وأشعرت بالمحبة ، وأصبحت تساق بعامل الرحمة لرحمة أولئك البائسين ، وأصبح الغنى مدافعاً عن نفس الفقير والقوى آخذاً بيد الضعيف .

ابتدأت الغزوات فى شهر صفر بعد مقدم النبى ﷺ ، فخرج إلى غزوة «الأبواء» فى مائتين من أصحابه يريد قريشاً ، و« بواط » لما بلغه أن عيراً لقريش ذاهبة إلى مكة ، ثم غزوة « العشيرة » غازياً لقريش ، و« بدر الأولى » ، وفى كل ذلك لم يلق حرباً .

وبعث فيما بينها بعوثاً : **فمنها** : « بعث حمزة » ، و« بعث عبيدة بن الحرث » متقاربين حتى اختلف فى أيهما كان الأول ، إلا أنها أول راية عقدها رسول الله ﷺ (ولم يكن بينها وبين المشركين قتال) .

و« بعث سعد بن أبى وقاص » و« بعث عبد الله بن جحش » ، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين [١] ، فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل نخله بين مكة والطائف ولا يستكره أحداً ، فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعير ، فتخلفا فى طلبه ، فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة ، وذلك آخر يوم من رجب ، فتحرج بعض المسلمين الشهر الحرام ، ثم اتفقوا ، وقتل عمرو بن الحضرمى ، وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وقدموا بالعير والأسيرين ، فأنكر النبى ﷺ فعلهم ذلك فى الشهر الحرام ، وما

---

(١) كتمان الأوامر وفتحها بعد حركة الجند من مراكزها أو الأساطيل من الثغور مما يعد من محاسن السياسة الأوروباوية الغامضة .

سرى عنهم حتى أنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ (١) ، فقبض النبى ﷺ الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء فى الأسيرين ، وأسلم الحكم بن كيسان ، ورجع سعد وعتبة سالمين إلى المدينة ، وهذه أول غنيمة غنمت فى الإسلام ، وأول غنيمة خمست .

ثم صرفت القبْلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، وخطب بذلك على المنبر ، وسمعه بعض الأنصار ونزلت آية : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ (٢) ، كان من قوة دهاء العقل وأصالة الحكم أن تسر جماعة المشركين ذلك فى نفسها ، فلا تتقدم له بالسؤال عن صرف القبْلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذى لقنه به بارئه ، لأن فى سكوتها تكذيبه وبطلان حجته ، وهم بذلك مغرمون إليه مضطرون ، وفى السؤال عنه تصديق لخبره فى إظهار سر القهر الإلهى المحيط بهم الملجئ لهم على السؤال ، ولو كان فى ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ، ولكنهم فعلوه لأن الخبر السماوىّ والوعد النبوى لا يتخلفان قطعاً .

هاج مقتل عمرو نفوس قريش وشعر كل طرف بيوم بعد يومه ، فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية ، ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلاً (عميدهم أبو سفيان) ، فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير ، وأمر بخروج كل من له ظهر حاضر ولم يحتفل فى الحشد ، لأنه لم يظن قتالاً .

اتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستنفر أهل مكة لعيرهم ، فنفروا وبعث رسول الله ﷺ من يتحسس أخبار أبى سفيان ، وعلم أن القوم صاروا بين التسعمائة والألف ، فاستشار الأصحاب من المهاجرين والأنصار فقالوا : وأحسنوا ، قالوا: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

عرف أهل قريش بمقدم المسلمين أيضاً ، ولكنهم مع كثرتهم هذه أصبحوا لا

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤٢ .

يشتدون على مقاومتهم كأنما أصاب مكان الوجدان من قلوبهم شيء ، ولم يكف أبو سفيان أنه تنكب بالعير إلى طريق الساحل ونجا ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه ، فقال : (ما بالنا لا نرجع وقد نجونا بالعير) ، ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعاً فيهم وقال : (إنا خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فارجعوا) ، فرجعوا ولم يشهد بدراً من قريش عدوى ولا زهرى .

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع ، ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب ويهيج عواطف إحساساتهم يقول : (لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً وتهابنا العرب) .

سبقهم رسول الله ﷺ إلى ماء بدر وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم ، وأصاب مما يلى المسلمين دهس الوادى ، وأعانهم على السير ، ثم نزل حيث أشار الحباب بن المنذر وبنوا حوضاً فملؤه ، ثم بنوا له عريشاً يكون فيه رسول الله ﷺ ، ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم فارسان : الزبير ، والمقداد .

توافقت الفئتان وعدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش ، وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فلما رآها قال : « اللَّهُمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللَّهُمَّ فنصرك الذى وعدتنى ، اللَّهُمَّ احنهم الغداة » .

ما زال الكلام يستوثق الناس على الشر (وأن الحرب أولها الكلام) ، حتى قام عامر وصرخ : واعمراه واعمراه ، فحميت الحرب ونادت الرجال على الرجال ، والنبى ﷺ يدعو ويلح ويقول فى دعائه : « اللَّهُمَّ أن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، اللَّهُمَّ انجز لى ما وعدتنى » ، ثم أخفق [1] ، ثم انتبه ، فقال : « ابشر يا أبا بكر قد أتى نصر الله » ، ثم خرج يحرض الناس ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : (شاهت الوجوه) ، ثم تزاحفوا وجال القوم جولة هزم المشركون فيها ، وقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم ، وأسر نحواً من عشرين رجلاً من كبرائهم

---

(١) أخفق فلان : حرك رأسه من نعاس .

كما هو مذكور تفصيله فى كتب السير ، واستشهد من المسلمين ثمانية خمسة من المهاجرين وواحد من الأنصار وواحد من الأوس وواحد من الخزرج ، وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله . ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان .

حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعد أن دعاهم بالحجة وقطع العذر وأزال الشبه ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة كما قدمنا ، فأخذ السيف منهم ما أخذ .

ثم افتدت قريش أكثر أسارى بدر ، وأمر بقتل كعب بن الأشرف من أكابر اليهود ، وكان من المحرضين على رسول الله فقتله الأوس ، ثم وقعت غزوات لم يلق فيها رسول الله ﷺ حرباً وهى : « غزوة الكدر » ، و« السويق » ، و«ذى أمر» ، و« بحران » .

تظاهر اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين وبغوا ونقضوا العهد ، وجاهروا بالكفر وقالوا وأساءوا الرد ، ونبذوا العهد ، فأنزل الله : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (١) ، فكانت « غزوة بنى قينقاع » : سارَ إليهم رسول الله ﷺ وكانوا فى طرَف المدينة فى سبعمائة مقاتل، منهم ثلاثمائة دارع فحاصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه ، فأمر بهم أن يقتلوا ، فشفع فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ، فحقن رسول الله دماءهم ثم أجلاهم ، وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع ، ولحقوا بخيبر وأخذ ﷺ الخمس من الغنائم ، ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس فى الصحراء وذبح بيده شاتين ، ويقال : إنهما أول أضحيته ﷺ .

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال وأتت بفرات بن حيان العجلى أسيراً ، فتعوذ بالإسلام وأسلم ، وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفاً.

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن أبى الحقيق) ، وكان نظير ابن الأشرف الذى قتله الأوس فى الكفر والعداوة ، فأذن لهم فقتلوه فى داره بخيبر ، وما زال

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٥٨ .

الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين فى طاعة رسول الله ﷺ والذب عنه، والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئاً من ذلك إلا فعل الآخرون مثله .

ثم كانت غزوة « أحد » ، وكان الذى أهاجها وقعة « بدر » ، فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها ، فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك العير تجارة ، وسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ليدركوا الثأر .

اجتمعت قريش بأحابيشها [1] ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة ، وكان أبو سفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ أشار على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا ، وإن جاءوا قاتلوهم على أفواه الأزقة ، وألح قوم من فضلاء المسلمين فلبس لأمته وخرج ، وقال آخرون : يا رسول الله ، إن شئت فاقعد ، فقال : «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » ، وخرج فى ألف من أصحابه ، فلما كانوا بين المدينة و« أُحُد » عاد عبد الله بن أبىّ بثلث الناس وكان من تبعة أهل النفاق ، وبقى رسول الله ﷺ فى سبعمائة فيهم خمسون رامياً ، فساروا حتى نزل الشعب من « أُحُد » ، وجعل ظهره وعسكره إليه ، والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع ، وفى المسلمين مائة ، وفرسان : فرس لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبى بردة ، وقاتل المسلمون واشتد القتال وانهزمت قريش أولاً، ثم خلت الرماة عن مراكزهم ، وكر المشركون كرة ، وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل ، وجرح رسول الله ﷺ فى وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته وكلم فى وجنته ووجهه فى أصول شعره ، وعلاه ابن قمئة بالسيف وهشمت البيضة فى رأسه وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط فى بعض حفر هناك ، فأخذ « علىّ » بيده واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح ، فبذرت ثنيتاه وكر دون رسول الله ﷺ نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، آخرهم عمار بن يزيد ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يلى النبى ﷺ بظهره ، وتقع به النبلة فلا يتحرك ، وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة ، وقد

---

(١) أحابيش قريش : جماعة تحالفوا بالله أنهم لبد على غيرهم وهم من جبل بأسفل مكة اسمه « حبشى » بالضم .

دهشوا وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون فى الحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة وجرح وقتل حمزة عم النبى ﷺ .

وهن المسلمون وظنوا أن رسول الله ﷺ قتل ، وإذا كعب بن مالك الشاعر من بنى سلمة يبشر الناس ، فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، ثم جاء بماء فغسل رسول الله ﷺ وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل ، وكانت حانت الصلاة فصلى بهم قعوداً ، وغفر الله للمنهزمين ، ونزلت آية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [1] ، ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ونادى : الحرب سجال يوم أُحُد ببدر ، وانصرف وهو يقول : موعدكم العام القابل ، فقال عليه السلام : « قولوا له : هو بيننا وبينكم » ، ثم سار رسول الله ﷺ إلى المدينة والمشركون إلى مكة .

مثل المشركون فى هذه الواقعة بسيدنا حمزة عم النبى ﷺ ، وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه وبقرن عن كبده ولاكتها ولم تسغها ، فلما رأى النبى ﷺ ذلك فى حمزة وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب أشار رسول الله ﷺ على ابنها الزبير أن يردها لكيلا ترى ما بأخيها ، فلقيها وأعلمها فقالت : (بلغنى أنه مثل بأخى ، وذلك فى الله قليل ، فما أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولأصبرن) ، ثم أتته وصلت عليه واسترجعت ، وأمر رسول الله ﷺ به فدفن .

إن بعض هذا الصبر لـما تضعف العزائم البشرية عن احتماله وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده ، ولكن الهدى هدى الله .

ثم أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى صبيحة يوم « أُحُد » بالخروج لطلب العدو ، وأنه لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس ، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والنصب ، وصار عليه السلام متجلداً مرهباً للعدو حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وأقام بها ثلاثاً وبلغ أبا سفيان وكفار قريش ذلك ، وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة ليستأصلوا المسلمين بزعمهم ، ففت ذلك فى أعضائهم وعادوا إلى مكة .

ما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال وأدركهم قصم الظهر وانبهار النفس بعد

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٥ .

أن كانوا من الزعم بأنفسهم فى شأن أزيد مما يليق بالنفوس البشرية ، فقد مال المشركون بعد هذه الحروب إلى الكذبة ، والفرية ، وأعمال الخونة ، فقدم على رسول الله ﷺ فى صفر تمام الثلاثة من الهجرة نفر ، وذكروا أن فيهم إسلاماً ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم فى الدين ، فبعث معهم ستة رجال من أصحابه حتى إذا كانوا قريباً من عسفان غدروا بهم ، ومنهم من قتل هناك ، ومنهم من حمل إلى مكة وقتل صبراً ، وكذلك قتلوا بعث المنذر بن عمر من بنى ساعدة ، وهم أربعون من المسلمين ، وقيل : سبعون . طلب ملاعب الأسنة أبو براء عامر ابن مالك أن يبعثهم النبى ﷺ إلى نجد ، فبعد أن تردد رسول الله ﷺ قال أبو براء : أنا لهم جار ، فسار وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبى ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتله ولم ينظر فى كتابه ، واستعدى عليهم وقتلوهم عن آخرهم .

ثم نهض رسول الله ﷺ إلى « غزوة بنى النضير » ، وأرادوا أن يؤذون رسول الله ﷺ ويصعدون إلى ظهر البيت رجلاً ليلقى على النبى صخرة ، فأوحى الله إليه بما أراد به اليهود ، وتهيأ لحربهم فتحصنوا بالحصون ، فحاصرهم ست ليال وانتهت بالكف عن دمهم وإجلائهم لخيبر بما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح ثم كانت « غزوة ذات الرقاع » ، و« غزوة بدر الموعد » التى خرج فيها رسول الله ﷺ لميعاده ، واعتذر أبو سفيان بجدب العام ، و« غزوة دومة الجندل » ، ولم يلق المسلمون فى كلها حرباً ، ووادع رسول الله ﷺ عيينة بن حفص أن يرعى بأراضى المدينة لأن بلاده أجدبت ، وهذه أخصبت .

ثم كانت « غزوة الخندق » وسببها : خروج جماعة من اليهود إلى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ﷺ ، ويرغبون من اشرأب إلى ذلك بالمال ، فأجابهم أهل مكة ، وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب فى (١٠٠٠٠ آلاف) من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم .

فلما سمع رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق وعمل فيه بيده والمسلمون معه ، وأقبلت الأحزاب ونزلوا بظاهر المدينة بجانب « أُحُد » ، وخرج عليه السلام بالمسلمين والخندق بينه وبين القوم ، ونقضت بنو قريظة العهد وكانوا موادعين فعظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل جهة ، ودام الحصار شهراً ، ولم تكن حرب ثم بعد أن اشتد الحال أتى رجل اسمه نعيم بن مسعود بن عمار ، وقال :

يا رسول الله ، أنا أسلمت ولم يعلم بى قومى ، فمرنى بما تشاء ، فقال : « إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، فخرج يدبر فى أمره ، فأتى بنى قريظة وكان صديقهم فنقم لهم فى قريش وغطفان وقال لهم : «إنهم إن لم يظفروا لحقوا ببلادهم وتركوكم ولا تقدرون على التحول عن بلدكم، ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم » ، ثم أتى أبا سفيان فى قريش وقال : « إن اليهود ندموا وراسلوا محمداً فى المواعدة على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم إليه » ، ثم أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش .

دخل بين القوم من باب الاختلاف والمشاقة فيما اتفقوا عليه ، فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بنى قريظة فى ليلة سبت يقول : « إنا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال » ، فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا : « ومع ذلك لا نقاتل حتى تعطونا أبناءكم فصدق القوم خبر « نعيم » ، وردوا إليهم (بالإنابة من الرهن والحث على الخروج) ، فصدق أيضاً بنو قريظة خبر « نعيم » ، وأبوا القتال ، فكان هذا الكلام عند هبوب ريح التخالف من أعظم وأكبر الأسباب التى تراجعت بها القلوب إلى نقض العهود ، ولم يقف الحال عند ذلك ، بل أرسل الله على قريش وغطفان ريحاً عظيمة أكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم ، فأصبح المسلمون وقد ذهب الأحزاب ، ثم نهض رسول الله ﷺ إلى « بنى قريظة» بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم ، فأمر المسلمين أن لا يصلى أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، وأعطى الراية علىّ بن أبى طالب ، وبعد أن حاصرهم خمساً وعشرين ليلة ضربت أعناقهم وقسمت أموالهم ، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً .

ثم كانت « غزوة الغابة وذى قرد » ، وكان سببها : أنه بعد قفول المسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزارى فى بنى عبد الله من غطفان على لقاح النبى ﷺ بالغابة ، وكان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوه وحملوا المرأة ووقعت الصيحة بالمدينة ، وركب رسول الله فى أثرهم حتى أدركهم ، فكانت بينهم جولة قتل فيها من قتل ، ثم ولى المشركون منهزمين ، وبلغ رسول الله ﷺ

ماء يقال له « ذو قرد » ، فأقام عليه ليلة ويومها ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ، ثم قفل إلى المدينة .

أقام رسول الله ﷺ إلى شعبان من السنة السادسة ، وغزا « بنى المصطلق » من خزاعة لما بلغه من أنهم مجتمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جويرية أم المؤمنين ، فخرج إليهم ولقيهم بالمريسيع من مياههم ، فتزاحفوا وهزمهم الله .

ثم خرج رسول الله ﷺ فى السادسة وفى ذى القعدة منها معتمراً « عمرة الحديبية » ، واستفز الأعراب وساق الهدى ، وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً ، وبلغ ذلك قريشاً ، فأجمعوا على صده من البيت وقتاله دونه ، فلما جاء رسول الله ﷺ إلى مكة بركت ناقته ، وقال الناس : (خلأت) ، فقال : ما خلأت وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم جرت السفراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش وقاضى رسول الله ﷺ على أمور ، ينصرف عامه ذلك ويأتى من قابل معتمراً ويدخل مكة والسيوف فى القرب ، فيقيم بها ثلاثاً ولا يزيد ، يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويأمن بعضهم بعضاً ، من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو امرأة يرد إلى قومه ، ومن ارتد من المسلمين لا يرد .

انبهم هذا الأمر على المسلمين وكبر عليهم وتكلم فيه بعضهم شأننا فى عالم الشهادة وعدم اهتداء الأفكار إلى كشف الغائب من الأمور إلا بهدى وإشراق مخصوص .

اهتدى النبى ﷺ لهذا الصلح وعلم أنه سبب لا من الناس وظهور الإسلام ، وأن الله سيجعل فيه فرجاً قريباً للمسلمين ، وهو أعلم بما علمه ربه .

كتبت الصحيفة كما قالوا (ولم يذكر فيها رسول الله) ، ثم أتى أبو جندل ابن سهيل يرسف فى قيوده فرده رسول الله ﷺ إلى أبيه ، وأخبره أن الله سيجعل له فرجاً وبينما هم يكتبون الكتاب عنه جاءت أيضاً سرية ما بين الثلاثين والأربعين يريدون الإيقاع بالمسلمين ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، وإليهم ينسب « العتيقيون » .

عظم هذا الأمر على المسلمين من كل وجه حتى إنهم أغضبوا النبى ﷺ فى

عدم متابعته أولاً عندما أمر بالحلق والنحر ثم نحر فتابعوه ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة معهم .

ما فتح الله بفتح قبل هذا أعظم منه أبداً ، كان القتال سداً فى وجوه القوم ، فلا تلتقى الناس دونه ، ثم كانت هذه الهدنة والناس على شوق من أن يأخذوا لأنفسهم بالأحوط ، فما بشروا بإطلاق هذه الهدنة ، وأمن الناس بعضهم بعضاً حتى التقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام أحداً أو يرشده إليه إلا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثلما كان قبل ذلك وأكثر .

وأعجب منه رد (من يهاجر من الكفار إلى قومه ، ومن ارتد من المسلمين لا يرد) خفى عليهم أيضاً أمره ولم يدركوا أن رد المسلم المهاجر إلى العرب داع لانتشار الدين بينهم لأنه مسلم ، لا يزايل قلبه الإسلام أبداً ، ومانع للنظر فى مكنون أسرار المرتد من المسلمين ليعلم ما هو عليه وهو بعيد عن محابس الخشية، وخالص من قيود الأوامر والنواهى ، فيعلم الناس المنافقين ، ويعلم النبى ﷺ من ينصره بالغيب .

ثم بعث النبى ﷺ رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب وسلاطين العجم ، فبعث سليط بن عمر إلى صاحب اليمامة ، والعلاء بن الحضرمى إلى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى صاحب عمان ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى صاحب الاسكندرية ، وشجاع بن وهب إلى صاحب دمشق ، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى .

وكتب إلى كسرى ، فلما قرأ الكتاب مزقه استكباراً ، فبلغ النبى ﷺ فقال : «اللَّهُمَّ مزق ملكه كل ممزق» (١) (وكان ذلك) ، فقد جزأ الله أصله وقطع دابره، لأن كل ملك أخرج من معظم ملكه يقيم على بقية منه ، ولكن الإسلام لم يترك لهذا الملك ملكاً تناله الحوافر والأقدام إلا أزاله عنه ، ثم كتب كسرى إلى «باذان» عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إلى النبى ﷺ رجلين جلدين من عنده يأتيان به،

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير .

فبعث إليه بقهرمانه وآخر معه ، فلما قدما على النبى ﷺ جاءه الوحى بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ليلة كذا من شهر كذا ، فأخبرهما وقال لهما : « إن دينى وسلطانى يبلغ ما بلغ ملك كسرى » (١) ، فانصرفا وأخبرا « باذان » الخبر ولم ينشب « باذان » أن جاءه كتاب شيرويه بقتل كسرى ، وهكذا دعواته المستجابة حين ما لقى من شدة أذى العرب وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال دعا الله عَزَّ وجَلَّ أن يجدب بلادهم ، وأن يدخل الفقر بيوتهم فقال ﷺ : « اللَّهُمَّ سنين كسنى يوسف ، اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر » (٢) ، فأمسك الله عَزَّ وجَلَّ المطر عنهم حتى مات الشجر ، وذهب الثمر وقلت المزارع ، حتى إذا بلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منتهاها عاد بفضله فسأل ربه الخصب وإدرار الغيث ، فأتاهم منه ما هدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم فكلموه فى ذلك ، فقال : « اللَّهُمَّ حوالينا ولا علينا » (٣) ، فأمطر الله عز وجل ما حولهم وأمسك عنهم .

ثم خرج النبى ﷺ غازياً إلى خيبر وحال الله بين غطفان وبين يهود خيبر برعب قذفه فى قلوبهم فأقعدهم فى مكانهم بعد أن كانوا أرادوا مددهم ، وافتتح رسول الله ﷺ حصون خيبر حصناً حصناً وبعض خيبر عنوة وبعضها وهو الأكثر صلحاً على الجلاء ، فقسمها رسول الله ﷺ وأقر اليهود أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف فى كل ما تخرج .

وفى هذه الغزوة أهدت اليهودية زينب بنت الحارث امرأة سلام إلى النبى ﷺ شاة مصلية ، وجعلت السم فى الذراع منها ، وكان أحب اللحم إليه فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال : إن هذا العظم يخبرنى أنه مسموم وأكل معه بشر بن البراء بن معرور ، وازدرد لقمة فمات منها ، ثم اعترفت اليهودية ودفعت لأولياء دم بشر فقتلوها .

ثم قدمت مهاجرة الحبشة إلى مكة وهاجروا منها إلى المدينة وفيهم جعفر بن أبى طالب ، وكان يوم فتح خيبر ، فقبل ما بين عينيه والتزمه وقال : ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السُّنَّة .

(٢) ورد فى صحيح البخارى ومسلم .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد .

اتصل شأن أهل خيبر بأهل فدك فسألوا رسول الله ﷺ الأمان على أن يتركوا الأموال ، فأجابهم إلى ذلك ، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله ، ثم افتتح وادى القرى عنوة وقسمها ورحل إلى المدينة .

أقام رسول الله ﷺ بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة ، ثم خرج فى ذى القعدة لقضاء العمرة التى عاهدته عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح ، وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ورسوله وكرهاً فى لقائه ، فقضى عمرته وتمت الثلاث التى عاهدته قريش على المقام بها وأوصوا إليه بالخروج وأعجلوه .

أمضى عهده ﷺ وخرج وأقام بعد منصرفه من هذه العمرة إلى جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ثم بعث الأمراء إلى الشام وأمر على الجيش ، وكان نحواً من ثلاثة آلاف مولاه « زيد بن حارثة » ، وقال : وإن أصابه قدر فالأمير « جعفر بن أبى طالب » ، فإن أصابه قدر فالأمير « عبد الله بن رواحة » ، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميراً عليهم وشيعهم ﷺ .

هذه الغزوة هى التى مثلت المساواة بين أفراد الصحابة فى الشجاعة ، وكادت أن ترفع من بينهم الامتياز « إلا بما فضل الله » ، فقد ظهر الكل فى معرض الشجاعة متجردين عن حب الحياة الدنيا غير غافلين عن شأن الله فيهم ، فأقاموا الدين وما تفرقوا فيه شيعاً .

انتهى هذا الجيش إلى معان من أرض الشام فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل بأرض البلقاء فى (١٠٠٠٠٠ فارس) من الروم ، و(١٠٠٠٠٠ فارس) من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم ، فأقام المسلمون فى معان ليلتين يتشاورون فى الكتب إلى رسول الله ﷺ وانتظار أمره ومدده ، ثم قال لهم عبدالله بن رواحة : أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا إلى جموع هرقل ورتبوا الميمنة والميسرة واقتتلوا ، فقتل « زيد بن حارثة » ملاقياً بصدره الرماح والراية فى يده فأخذها « جعفر بن أبى طالب » ، فعقر فرسه ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت كذلك ، وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأخذها « عبد الله

ابن رواحة » ، وتردد عن النزول بعض الشيء ، ثم صمم إلى العدو فقاتل حتى قتل ، فأخذ الراية ثابت بن أقرم من بنى العجلان وناولها « لخالد بن الوليد» فانحاز بالمسلمين ، وقد استشهد منهم ما يزيد على العشرة أكرمهم الله بالشهادة .

انظر لهذه الحجج والقوارع العظمى ونداء العناية العليا من الجبروت الأعلى ، وأعجب لهذه الشجاعة التى وسعت كل شيء من القوى ولتلك المعجزات الباهرة، أنذر النبى ﷺ بإصابة وقتل هؤلاء الأمراء قبل يومهم هذا بما فيه مقنع لمن وهبه الله صحة العقل .

كان اشتغال العرب بهذه الحروب شغلاً شاغلاً لهم نسوا به دماء بينهم ، فلما وقع صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضاً ، وفرغوا من مشاغل الحروب وحلوا الأغلال التى كانت أخذت بأيديهم ومالوا لإدراك الثأر .

وكان من الدماء المسفوكة التى لم يتم فيها التنازع والتجالد دم بين بنى بكر وخزاعة مضت عليه الأزمنة والأعصار حتى جاء الإسلام ودخلت خزاعة فى عهد النبى ﷺ ، ودخلت بكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية .

أراد الله أن يلوح من خلال هذا الظلم القديم نور فتح جديد مبين ، فقام رجل من بكر ينشد هجاء النبى ﷺ ، فسمعه رجل من خزاعة فشجه فهاج الشر بينهم وانتقض العهد الذى بين قريش وبين النبى ﷺ ، فقدم وفد من قومهم مستغيثين برسول الله ﷺ مما أصابهم ، فأجاب صريخهم وأخبرهم أن أبا سفيان سيأتى يشد العقد ويزيد فى المدة ، ولكنه يرجع بغير حاجة ، وأن الذى فعلته قريش ستندم عليه وسيكون ذلك سبباً للفتح ، وكان ذلك جميعه .

صدق الله رسوله ﷺ ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد فى المدة ، فرجع بغير حاجة ، ثم أعلم رسول الله أنه سائر إلى مكة ، وأمر الناس بأن يتجهزوا ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش ، وكتب إليهم حاطب بن أبى بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة إلى مكة ، فأوحى الله إليه وبعث علياً والزبير والمقداد إلى الظعينة فأدركوها فأخرجته من بين قرون رأسها .

خرج رسول الله لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة فى (١٠٠٠٠ نفس)

من قبائل من سليم ، وغفار ومزين ، وطوائف من قريش وأسد وتميم ، وغيرهم من سائر القبائل ، وقال : « اللّهُمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » ، فطوى الله أخباره عن قريش إلا أنهم يتوجسون الخيفة . قال العباس: والله إن بغتها فى بلادها ، فدخل عنوة أنه لهلاك قريش آخر الدهر ، وخشى تلافَ قريش إن فاجاءهم الجيش قبل أن يستأمنوا ، فركب العباس بغلة النبى ﷺ وذهب يتحسس ، وكان أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر أيضاً ، فسمع العباس صوت أبو سفيان وبديل ، وقد أبصرا نيران العسكر، فيقول بديل : نيران بنى خزاعة ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فقال العباس : هذا رسول الله فى المسلمين ، أتاكم فى (١٠٠٠٠ نفس) ، قال : ما تأمرنى به ، قال : تركب معى فاستأمن لك رسول الله ﷺ ، فوالله إن ظفر بك ليضربن عنقك فردفه خلفه ونهض به إلى المعسكر ومر بعمر رضى الله عنه ، فخرج يشتد إلى رسول الله يقول : الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد [١] ، فسبقه العباس على البغلة ودخل هو على أثره، فقال : يا رسول الله ، هذا عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بلا عهد ، فدعنى أضرب عنقه ، فقال العباس : (قد أجرته) ، فزأر عمر فقال العباس : لو كان من بنى عدى [٢] ، ولكنه من عبد مناف [٣] ، فقال عمر : والله لإسلامك كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب ، لأنى أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك ، فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتين به صباحاً، فلما أتى به قال له ﷺ : « ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله » ، فقال : (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا) ، قال : « ويحك ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله » ، قال : (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس منها شىء » ، فقال له العباس : ويحك ، أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم ، فقال العباس : (يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً » ، قال : « نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن،

---

(١) يريد انتقاض عهد الحديبية .

(٢) جد سيدنا عمر بن الخطاب .

(٣) يعنى جد نفسه .

ومن دخل المسجد فهو آمن » ، ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادى ليرى جنود الله ، ففعل ذلك ومرت به القبائل قبيلة قبيلة إلى أن جاء مركب رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار عليهم الدروع البيض ، فقال : من هؤلاء؟ فقال العباس : هذا رسول فى المهاجرين والأنصار ، فقال : (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً) ، فقال : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، فقال : هى إذن - أو قال : نعم إذن - ، ثم قال له : التجئ إلى قومك فأتى مكة وأخبرهم بما أحاط بهم ، وبقول النبى ﷺ : « من أتى المسجد فهو آمن . . . إلخ » .

ثم رتب النبى ﷺ الجيش وكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة الزبير، وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح ، وسرب رسول الله ﷺ الجيوش «من ذى طوى» ، وأمرهم بالدخول إلى مكة « الزبير » من أعلاها ، و« خالد » من أسفلها ، وأن يقاتلوا من تعرض لهم ولم يكن إلا جولة ، وانهزم المشركون وكان الفتح لعشر بقين من رمضان ، وأهدر دم جماعة من المشركين يومئذ أتت على أسمائهم كتب السير .

دخل رسول الله ﷺ المسجد وطاف بالكعبة ، وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته ، فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، وأبقى له حجابة البيت [١] ، وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها وبكسر الأصنام حواليها ، وأمر بلالاً فأذن على ظهر الكعبة .

ثم وقف رسول الله ﷺ بباب الكعبة ثانى يوم الفتح ، وخطب خطبته المعروفة، ووضع مآثر الجاهلية إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، وأخبر أن مكة لم تحل لأحد قبله ولا بعده ، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس ، ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى فى الجاهلية فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج ، ألا وإن قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون فى بطونها أولادها .

---

(١) وهى فى ولد شيبة إلى اليوم .

يا معشر قريش ؛ إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ، ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يا معشر قريش ويا أهل مكة ؛ ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ » ، قالوا : خيراً أخ كريم، ثم قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وأعتقهم على الإسلام وجلس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وبايع النساء سيدنا عمر بن الخطاب .

مثّل رسول الله ﷺ بفعله هذا (الكمال) فى أبلغ صوره ومنتهى درجاته بمقابلته كفران أهل مكة بإحسانه وإنعامه على أن الذى لاقاه عليه الصلاة والسلام منهم من أول دعوته لحد هذا الفتح مما لا يسعه حلم ولا يحيط به كرم ، ولكن رسول الله ﷺ أشفق الناس على أمته ، نام فى فؤاده الشريف حب إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين منهم ، ولو أنهم كانوا من العناد بالمقدار الذى بينوه أصحاب السير ، قابلهم وهو فى أشد مظاهر القوة والعظمة بحلمه ، وكرمه ولطفه وإحسانه ، وعفا عنهم وكذا شيمته عليه الصلاة والسلام ، وكفى بنعت الله له فى كتابه الكريم بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

أقام رسول الله ﷺ بعد هذا خمسة عشر ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة ، وقد نزلوا « حنيناً » ، فبعث النبى ﷺ يستعلم خبر القوم ، فجاءه الرسول وأطلعه على جلية الخبر ، وأنهم قاصدون إليه فجهز رسول الله ﷺ الجيش ، ومر به حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة ، وهو وادى حزن فتوسطوه فى غبش الصبح ، وقد كمنت هوازن فى جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد ، فولى المسلمون لا يلوى أحد على أحد ، وناداهم ﷺ ، فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والنبى على بغلته البيضاء والعباس آخذ

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣.

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

بشكائهما ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة وبالمهاجرين وكان جهير الصوت ، فنادى فاقتحمت الناس الرواحل راجعين ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا « هوازن » ، والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب وحمى الوطيس وقذف الله فى قلوب « هوازن » الرعب حين وصلوا إلى رسول الله ﷺ ، فلم يملكوا أنفسهم فولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل فى بنى مالك وثقيف .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال ، فحبست وسار من فوره إلى الطائف ، فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة ورماهم بالمنجنيق ، ثم انصرف رسول الله ﷺ بعد ما دخل الطائف وجاءه وفد « هوازن » بالجعرانة وخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، ثم رد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم وقسم الأموال بين المسلمين ، وأعطى قوماً يستألفهم على الإسلام يسمون المؤلفة مذكورون فى كتب السير يقاربون الأربعين .

وجد الأنصار فى أنفسهم من ذلك ، فتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده مكة يرجع إلى قومه ويتركهم ، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال : إنما أعطى قوماً حديثى عهد الإسلام أتألفهم عليه أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاة والبعير وتنصرفون برسول الله ﷺ إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار ففرحوا .

اعتمر رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة ورجع إلى المدينة ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شاباً ينيف على العشرين غلبه الورع والزهد ، وهو أول أمير أقام حج الإسلام وحج المشركون على مشاعرهم .

أقام رسول الله ﷺ إلى شهر رجب من السنة التاسعة ، وأمر الناس أن يتهيأوا لغزو الروم ، وكان فى غزواته كثيراً ما يورى بغير الجهة التى يقصدها على طريقة الحرب إلا ما كان فى هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب وبعد البلاد ، وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون ، وتجهز الناس على ما فى أنفسهم من استثقال ذلك

والمنافقون لا يفتأون يثبطون الناس عن الغزو ، وتقدم كثير من المسلمين بالإنفاق كسيدنا عثمان بن عفان ، فإنه أنفق فيها (١٠٠٠٠ دينار) ، وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس ، وجهز ركاباً ، وجاء بعض المسلمين يستحملون النبى ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فنزلوا باكين لذلك ، وسار رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى تبوك فأتاه « صاحب آيلة » و« أهل جرباء وأذرعات » ، فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتاباً ، وبعث خالد بن الوليد فصالح صاحب « دومة الجندل» على الجزية أيضاً ، ثم أسلم عروة بن مسعود ، وجاء وفد ثقيف بعد ما ضيق عليهم مالك بن عوف ، واستباح رحمهم وقطع سابلهم فأسلموا ، وأمر عليهم عثمان ابن أبى العاص أصغرهم سناً لحرصه على الفقه وتعلم القرآن .

ثم هدمت اللات والعزى : هدمها المغيرة بن شعبة ، وقام قومه من بنى شعيب دونه خوفاً من أن يرمى بسهم ، وخرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها ، وجاء أبو سفيان ، فأخذ حليها ومالها وقضى منه دين عروة والأسود بن مسعود كما أمر رسول الله ﷺ .

كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر النبى ﷺ ، ولأن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وضريح ولد إسماعيل وقادتهم لا ينكرون لهم ، وكانت قريش هى التى نصبت لحربه وخلافه ، فلما استفتحت مكة ودانت قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته ، فدخلوا دينه أفواجاً يضربون إليه من كل وجه مصداقاً للخبر الإلهى الذى لا يتخلف : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً** ﴾ (١) .

ضربت إليه وفود العرب حتى سميت هذه السنة (سنة الوفود) وجاءته الكتب والرسل تترى من الملوك : « كحمير » ، و« ابن ذى يزن » وغيرهما بإسلامهم ومفارقة الشرك وأهله ، وكلما جاء وفد أكرمهم النبى ﷺ وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم وبشرهم بالخير ، وأمرهم به وشدد عليهم فى الظلم ونهاهم عنه ، وفهمهم وأخبرهم بالذى لهم وعليهم ، وكتب ﷺ العهود والكتب .

---

(١) سورة النصر ، الآية : ١ .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع لموافقة الحج فيها عاشر الحجة [1]، ومعه أشراف الناس وخطب بعرفة خطبته المشهورة التى بيَّن للناس فيها ما بيَّن، قال عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس ؛ اسمعوا لى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمن عليها ، وإن كان رباً فهو موضوع ، ولكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أن لا رباً، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع كله ، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [2] ، فهو أول ما أبدأ من دم الجاهلية .

أيها الناس ؛ إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله .

---

(١) كانت العرب تستعمل شهور الأهلة ، وكان حجهم وقت عاشر الحجة كما رسمه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فأدى الاختلاف بين شهور السنة الهلالية وبين فصول السنة الشمسية إلى وقوع الحج فى وقت يصعب عليهم فيه السفر لعدم اعتدال الزمن وموافقته للإدراك ، فاجتمعوا ونسؤا السنة شهراً ، فوقع فى السنة محرمان : الأول : رأس السنة ، والآخر : فى النسىء ، فلما انتهت النوبة فى آخر أيام النبى ﷺ إلى وقوعه فى ذى الحجة وتم دور النسىء على جميع الشهور حج ﷺ فى تلك السنة حجة الوداع لوقوعها فى عاشر ذى الحجة كما كانت ، وخطب وأمر الناس بما شاء الله أن يأمر . ومن جملة ذلك : قوله: « ألا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض - يعنى رجوع الحج إلى الموضع الأول - كما كان فى زمن سيدنا إبراهيم » ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ﴾ .

(٢) وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتله بنو هذيل .

ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان .

أيها الناس ؛ فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يواطئن فرشكم أحداً ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً ، إنهن لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى ، فإنى قد بلغت قولى وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسُنَّة نبيه .

أيها الناس ؛ اسمعوا قولى واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم .

ألا هل بلغت اللَّهُمَّ فاشهد » .

قام علىّ ، وعباس وابناه الفضل ، وقثم ، وأسامة بن زيد ، يتولون تجهيز رسول الله ﷺ ، كما أوصى فغسله علىّ وعليه ثيابه مسندة إلى ظهره ، والعباس وابناه يقلبونه معه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، ثم كفنوه فى ثوبين صحاريين وبرد جده أدرج فيهنّ أدراجاً ، ودفن حيث قبض فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته ، ولحده أبو طلحة زيد بن سهل ، وكان يحفر لأهل المدينة ، ثم دخلت الناس فصلت عليه الرجال ، ثم النساء ، ثم الصبيان ، ثم العبيد لا يؤمّ أحدهم أحد ، ثم دفن فى وسط الليل ليلة الأربعاء ، وقيل : ليلة الثلاثاء ، وكانت ليلة ليلاء أظلمت بفقد الرسول ﷺ ، وانقطاع الوحى واشترك الناس كلهم فى العزاء ، فطاشت العقول وخرست الألسن ، وعمره ثلاث وستون أو خمس وستون صلوات الله عليه .

* *

(شمائله صلى الله عليه وسلم)

كان حسن الخلق ، وسيماً ، قسيماً ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، وكان وجهه أغر ظاهر الوضاءة يتلألأ ، فيه تدوير ، ولم يكن بالطويل ، ولا بالمطهم ولا بالمكلثم، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أبلج الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، حاد البصر عظيم العينين أنجلهما أدعجهما أكحلهما ، أسود الحدقة ممزوجة بحمرتها ، أحمر المآقى ، أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، شارع الأنف ، حسن الأرنبة ، أقنى العرنين ، سهل الخدين ، أسيلهما صلبهما ، تام الأذنين ، ضليع الفم حسنه ، أشنب الأسنان ، مفلج الثنايا براقها ، إذا ضحك يتلألأ ، وإذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه ، وكان أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم، حسن الصوت فى صوته صهل يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره ، وإذا خطب اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم .

أحسن عباد الله عنقاً لا بالطويل ولا بالقصير كأنه جيد دمية ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، أجرد أزهر اللون أنور المتجرد ، أحسن وجهاً ، وألين الناس كفاً ، وأنور الناس لوناً ، يرى رضاؤه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته ، فكأن وجهه مرآة ، لم يصفه واصف إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله فخماً مفخماً حسن الجسم معتدل الخلق ، بادناً أحسن الناس قواماً لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً ، كالمرآة فى استوائها ، وكالقمر فى بياضه ، أطول من المربوع وأقصر من المشذب ، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين سواء البطن والصدر قوى الجسم ، شديد البطش ، عظيم الهامة ، ضخم الكراديس ، شثن الأصابع ، شثن الكفين والقدمين ، جليل المشاش والكتد ، عبل الذراعين ، عبل العضدين ، ضخم الزندين ، طويلهما ضخم الفخذين والساقين رحب الراحتين، سائل الأطراف ، منهوس الكعبين ، مسيح القدمين ، خمصان الأخمصين ، أحسن البشر قدماً إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلع عن صخر وكأنما ينحط من صبب يخطو تكفياً ويمشى هوناً بغير تبختر ، ما مشى مع أحد إلا

طاله ، ذريع المشية يجهد أصحابه أنفسهم وهو غير مكترث ، يمشى مجتمعاً مشياً يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان ، ولا يلتفت وراءه ولا يعيا يقبل جميعاً ويدبر جميعاً إذا جاء مع القوم غمرهم يسوق أصحابه ويبدر من لقيه بالسلام ، كث اللحية ، حسن السبلة ، حسن الشعر رجله ، شديد سواده إذا انفرقت عقيقته فرقها ، جميل الوفرة ، حسن اللمة ، عظيم الجمة ، ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط ، كان جعداً رجلاً ، يترجل غباً ، وإذا مشط شعره يأتى كأنه حبك رمل ، وربما جعله غدائر أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين ، وربما جعله على أذنيه فتبلغ سوالفه ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، فكان طويل المسربة دقيقها موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط لم يكن على بطنه ولا على ظهره شعر غيره .

أحسن الناس خلقاً وأجود الناس صدراً وأصدق الناس لهجة ، وألين الناس عريكة وأكرم الناس عشرة ، وأطهر الناس طبعاً ، وأشجع الناس قلباً ، وأسخى الناس كفاً ، وأطيب الناس نفساً ، أعرف الناس بالله وأخشاهم لله وأكثرهم صياماً وقياماً ، لا سيما فى شهر رمضان حتى تورمت قدماه ، أجود الناس بالخير لا يرد من سأله حاجة إلا بها أو بميسور من القول ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ولا يأتيه أحد إلا وعده ، وأنجز له وإن كان عنده أعطاه ، ولا يدخر شيئاً لغد ، وما سئل شيئاً قط فقال لا ، لم يكن بالجافى ولا المهين ، وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء ، وكان يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدَّى [1] الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له يغضب لربه عَزَّ وجَلَّ ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، وإذا رأى شيئاً يكرهه عرف فى وجهه ، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، كان من أفكه الناس لا يحدث حديثاً إلا تبسماً قليل الضحك جل ضحكه التبسم ، إذا أفتر ضاحكاً يفتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ ، وعن مثل حب الغمام ، كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بتشهيق ورفع صوت كما لم

---

(١) تعدى : بضم التاء مبنى للمجهول .

يكن ضحكه بقهقهة ، ولكن تدمع عيناه حتى تنهملان فيسمع لصدره أزيز يبكى رحمة لميت أو خوفاً على أمته وشفقة ، ومن خشية الله ، وعند سماع القرآن ، وأحياناً فى صلاة الليل ، وإذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وخفض بها صوته ، وما تثائب قط ، وكان يكرهه من غيره ، دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، دائم الفكرة ، متواصل الأحزان ، طويل السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل ، ويكنى عن الأمور المستقبحة فى العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها ، ويخزن لسانه إلا فى ما يعنيه ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء يذكر الله بين كل خطوتين ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ، حلو المنطق ، فى كلامه ترتيل ، يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا نزر ولا هذر، بين يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه ، كأنما هو خرزات نظمن لا فضول فيه ولا تقصير لو عده العاد لأحصاه ، لا يذم أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجى ثوابه مجلسه مجلس حلم وحياء وإماتة وصبر ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تأبن فيه الحرم ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده ، حديثهم عنده حديث أولهم ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره يضحك مما يضحكون ، ويتعجب مما يتعجبون ، يعطى كل جلسائه نصيبه ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، وكان يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام ، خافض الطرف جل نظره الملاحظة ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، تنام عيناه ولا ينام قلبه ، يؤثر أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم ، وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخلقه يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه ، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا إنه يجاهد فى سبيل الله ولا ضرب امرأة ولا خادماً ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظم الناس عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة ،

يرفد صاحب الحاجة لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، لا يقبل الثناء إلا من مكافئ.

يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ، ما أكل على خوان ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقق ، وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير، يمر بالصبيان فيسلم عليهم ، ولا يدفع عنه الناس ولا يضربون عنه ، ولم يكن شخص أحب إليهم منه ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس .

* *

(كلمات من حكم رسول الله ﷺ)

أنى تستقصى الأنفاس الشريفة وتحصى الحكم المنيفة ورسول الله ﷺ من أذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم ، وقصرت عن مقاومته جميع الأمم ، وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم ، وإنما هى كلمات على سبيل البركة والاعتبار ، والله يهدى لنوره من يشاء ، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً.

قال عليه الصلاة والسلام :

« رحم الله عبداً قال فغنم أو سكت فسلم ، السعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه ، صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، التدبير نصف المعيشة ، المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، المرء كثير بإخوانه ، الدال على الخير كفاعله، المؤمن مرآة أخيه ، الناس معادن ، حبك الشيء يعمى ويصم ، من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ، الرزق أشد طلباً للعبد من أجله ، نية المؤمن خير من عمله ، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك . قل الحق وإن كان مراً ، استعينوا على حوائجكم بالكتمان ، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ، ما غال من اقتصد ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، إياك

وما يعتذر منه ، عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام ، حفت الجنة بالمكاره ، مطل الغنى ظلم ، البر حسن الخلق، القناعة مال لا ينفد، من تواضع لله رفعه الله ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس أهله ، لا إيمان لمن لا أمانة له ، إياكم والدَين فإنه هم بالليل ومذلة بالنهار ، الوحدة خير من الجليس السوء ، لا يمنعن من أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق إذا علمه ، لا تظهر الشماتة بأخيك ، لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وترجع بطاناً ، رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، إن الله عند لسان كل قائل ، إن المعونة تأتى العبد من الله على قدر المؤنة والصبر على قدر المصيبة، إن الله ينهاكم عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال ، ما مثلكم ومثل الدنيا إلا كراكب قال تحت شجرة ثم راح وتركها ، ليس من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، خير دينكم أيسره وخير العبادة أخفها ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، كفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى أمر دنياه ودينه ، لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت ، الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله ، شر الأمور محدثاتها ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، من أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، خير الغنى غنى النفس ، رأس الحكمة مخافة الله ، خير ما ألقى فى القلب اليقين ، الخمر جماع الإثم ، شر الكسب كسب الربا ، شر المآكل مال اليتيم ، سباب المؤمن فسق ، من يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يقرض الله يضاعف له الله ، شر العمى عمى القلب وشر الندامة ندامة القيامة ، خير العمل ما نفع ، الضحك هلاك البدن ، نعمتان مغبون فيهما الناس : الصحة والفراغ ، أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، السلطان ظل الله فى أرضه يأوى إليه كل مظلوم ، السعادة طول العمر

فى طاعة الله ، خصلتان لا تكونان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين ، فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، الرغبة فى الدنيا تكثر الهم والحزن ، الفراغ يقسى القلب ، الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس ، العلماء أمناء الله على خلقه ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، لكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر ، من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، التمسوا الرزق فى خبايا الأرض ، اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم ، اتقوا دعوة المظلوم ، لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه أبداً وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبداً ، لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا كنه عقله ، ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله ، الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إليه أنصفهم لعياله ، رب مبلغ أوعى من سامع ، من أودع معروفاً فليفشه فإن نشره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ، من صمت نجا ، من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته ، أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة» .

* *

(تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم)

لا يكذب القائل إذا قال : إن الفوضى فى العقول والشرائع والعوائد ، وكل شيء تستقيم به التكاليف ، قبل بعثته ﷺ كانت عامة ، وقد وصل الغالون من كل مِلّة فى أنواع الظلم إلى حد قليل أن يسمى بالشقاء والفساد ، واستولى الاضطراب على المدارك ، وسارت الشبهات على العقائد ، فقلبت وضعها وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة فى عبادة الأوثان والحجارة والمنافسة فى الموؤدة والسائبة والتفاخر فى إراقة الدماء وتقطيع الأرحام ، ودولة الفرس والرومان كانت متظاهرة بكل ما فيه نهك القوى وهلاك الأموال وظلم الأمم المجاورة فضلاً عن الترف والسرف الذى بلغ مبلغه ووصل أقصى درجات الإفراط، فمهما نظرت رأيت بغياً وحسداً ، وقطعاً للأرحام ، وتنافساً فى

الردى، وإعراضاً عن ذكر الله وسلطان القوى منحصر فى سلب ما بيد الضعفاء حتى ضاعت عقيدة الأمن على الأرواح والأموال والأعراض ، وأصبحت الكرة الأرضية كأنها دار حرب والنفوس كلها مشرأبة إلى الأذى والضرر ، فلا تستأنس رشداً ولا خيراً من أحد أبداً: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] .

أى علاج لرفع هذه الغمم عن الأمم أنجع وأنفع من بعثة رسول الله ﷺ الذى لم تمض عليه عشرون سنة بين دعوته وهجرته ، ومناظراته وغزواته حتى ظهرت الفائدة فى العمل ، وقام العدل وانتظم شمل الجماعة بالأمر بالمعروف (وصرف الله القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء) ، وخلقوا خلقاً جديداً نسوا فيه العداوة والعدوان ، ثم لتمض عشرون سنة أخرى حتى أصبحت الأمة العربية بديعة النظام شديدة البنيان ، نامية فيها أفنان العزة مستحكمة فيها أصول القدرة ، مستعلية آدابها ، سائدة أخلاقها ، مستحسنة عاداتها ، صاف منهلها ، مستقيم منهجها ، لذيذ موردها ، غزير منبعها ، معروفة شرعتها ، مهندم بناؤها ، متمم منظومها ، متحد هواؤها وأهواؤها ، وقد اتجهت لكل شىء يحفظ وجودها ويجمع كلمتها وينهض همم آحادها حتى تنبهت وتقوت وسادت وامتنعت وأشرفت على رؤوس الأمم وتجلت عليهم .

بماذا تم لها ذلك ؟

تم لها بالدين القويم الأصول ، المحكم القواعد ، الشامل لأنواع الحكم ، الباعث على الألفة ، الداعى للمحبة ، المزكى للنفوس ، المطهر للقلوب ، الهادى للعقول بنور الحق ، الكافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان المشيد لمبانى العمران ، الحافظ لوجود المعتنق ، له من آفات البهتان المزيل للوحشة ، الجامع للصيانة ، الحافظ للاستقلال ، المهذب للأخلاق ، المحرك بمواعظه غيرة القلوب، الآمر ببيع الأرواح فى حفظ شرف الأمة والملّة .

أتى على الأمة العربية فوحدها وقواها وهذبها وهداها ، وأنار عقولها وذكاها، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت العالم أجمع وساست دوله بسياسة العدل والإنصاف ، وليس ذلك ببعيد على دين أعدته الحكمة الإلهية خاتمة الأديان لنوع الإنسان ، ينتهى به إلى غاية المدنية ، ويصل إلى أقصى مراقى الآداب .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٩.

جاء هذا الدين بصور من العبادات وضروب من الاحتفالات تفقه الألباب وتنير العقول ، وتكسو الإنسان حلة الإنسانية مع ظهور الحجة واستقامة المحجة على أنها من عماد السعادة ومصلحة البشر .

طالب هذا الدين كل قادر بالعمل ، وأنه لا يليق بنفس بشرية أن تظهر فى الوجود ، وقد عميت عن طرق الاهتداء وطمست عن أعينها معالم الهداية ، فهى كلّ لا تعمل الخير ولا تبقين عليه .

قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ (١) ، فأصبح للإنسان بالدين قوة تدعوه للدأب على العمل حتى يبلغ الغاية من عمله ، فرفع الدين بهذا عن النفوس الجبن والخمول والكسل والعالة ، وبيّن ما فيها من العار والشنار والضعف الذى لا يليق بالإنسانية أبداً .

نزلت فى الكتاب الكريم خمس آيات تأمر الإنسان بالسير والحركة وتدعوه للنظر فى آثار من تقدمه ، وقد نصبها الله منصب العظة والاعتبار ، وأقامها مقام الدليل على عمل أصحابها من خير أو شر مجدد فى النفوس قوة للتنافس بالأعمال واتباع أحسن الطرق فى اقتناء الفضيلة بالجد والاجتهاد لا يقعدها عنها المسالك الحزنة ولا المعابر الوعرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) ، فدل هذا على أن لا فضل لأحد على أحد إلاّ بتقوى الله ، وإن الإنسان كلما استغرق فى بحار العبودية لخالقه ، وعرف أن إلهه إله كل شيء القادر على كل شيء المحيط بما فى نفسه ، وقام بما خلق لأجله من أعمال الهداية التى نصبها الله سبيلاً للنجاة ، فلا سلطان لأحد عليه إلا بحق لأنه بهذا التوحيد أصبح عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه له ما للحر على الحر .

عرف الإنسان من هذا بالبرهان القطعى أن مشيئة الرؤساء التى كانت تستعبد الأمم فى مرضاتها والروح الخبيثة التى كانت تلامسهم ، فيدعون الشرائع الإلهية ناحية ، ويطمحون إلى الشهوات ويدخلون فى كل أمر لهم فيه رغبة بلا روية ولا استبصار لا ينبغى الرضوخ لها ولا التسامح فيها ، وأنه يجب على الإنسان أنه

---

(١) سورة النجم ، الآيات : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

فضلاً عن أن يصون نفسه عن الانقياد لها كذلك يتقدم لبنى جلدته بالنصيحة حتى تتأبى عنها ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

كشف الإسلام عن العقول غمة الوهم ورفع الامتياز بين أفراده إلا بعلم أو عمل ، قال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٣) ، وقرر لكل طبقة من طبقات العلوم شرفاً مخصوصاً ، ودعى لها جميعاً حتى دعى الناس للنظر فى النجوم بعد البحث فى هذه الرسوم وذم الجهل والقصور عن إدراك ما جاءت به الشرائع من الحكم وضرب له الأمثال ، فقال تعالى حكاية عن المتلبس به : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ (٤) ، ففتح بذلك باب السعادة للإنسان بطهارة العقل من دنس الوهم وخلاص العمل من وساوس الطغام .

جمع القلوب على الألفة والمحبة بفريضة الزكاة التى افترضها ، تؤخذ من أغنيائهم لفقرائهم ، فاستلت الضغائن والأحقاد التى فى القلوب ، وأصبحت الأمة الإسلامية إخواناً لا نهليست ولا سوسيالست ولا كومون ولا أنارشيست : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (٥) .

أدب النفوس بالصوم وأذاق الأمير البؤس ليعلم ويحس بحال أخيه الفقير الجائع ، فلا ينساه من الموهبة التى وهبها الله له ولا يخليه من إحسان حتى يكون الغنى المحسن الشاكر كما أن ذاك هو الفقير الصابر .

هذه قطرة من بحر الشريعة الغراء تكفينا لتقرير الكلام عليها فى هذه العجالة، فنقول : إلى أى مرتبة يصل الإنسان المتصف بهذه الأخلاق : حر فى نفسه ، معان من إخوانه ، عالم بأن الله واحد لا إله إلا هو متحقق أن لا وصول

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٤ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩ ، .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٩٥ ، .
(٤) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

للسعادة إلا بالعمل ، وأن لا عمل إلا ما كان فيه رضاء الله ، أتراه يصبح ويمسى جاهلاً بعد هذا « التعليم » ، وتصيبه الغواية « مع هذا الإرشاد » ، ويتلبس بالمنكر بعد هذا الأمر بالمعروف ، أم تراه يرقى بشرف هذا الاستعداد حتى يبلغ درجات الكمال التى أعدها الله وسجلها لكل من اتبع نور هذا القبس واستضاء به ؟ .

ظهر الدين الإسلامى وبقية الملل قد مزقتها المشارب وفرقتها المذاهب ، فكان سبباً لهداية الخلق أجمع ، وأصبحت الناس كلهم أمامه بين رجلين (إما داخل فيه طوعاً وإما مقلد له استكباراً) ، وكذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (١) ، فالنهضة العلمية فى بغداد فى عهد المأمون رضى الله عنه لا تختلف عن النهضة العلمية فى باريس فى أيام لويس الرابع عشر ، فإن مفتاح العلوم فى كليهما الدين الإسلامى الذى دعى للنظر والبصر فى كل شىء ، ولم يدع نفساً غافلة لاهية إلا عابها ، فالدين الإسلامى منشأ كل علم وباب كل سعادة ، ومفتاح كل استقلال للرأى والفكر والإرادة ، وبه تكمل الإنسانية وتستعد لأن تبلغ ما هيأه لها الله من حسنات الآخرة .

اتفق أهل الدنيا على أن دين الإسلام رفع كل الأثقال عن بنى الإنسان وأحسن إليهم المعاملة حتى ترامت عليه أهل الملل الأخرى يبتغون فضلاً من أهله فوجدوا فيه العدل والإنصاف والمساواة والإخاء حتى فى التقاضى مع المسلمين بين يدى قضاة المسلمين ، فاستكثروا بالدخول فيه ، « حتى أثر دخولهم فى واردات الجزية من كثرته » ، واستخدم الخلفاء من بنى أمية وغيرهم من وجدوا فيه المهارة من غير المسلمين كالكتبة والعمال ، وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب وأسماها ، والإسلام يظلهم بظلاله وهم يبذلون فى خدمته أنفسهم .

انتقل إلى أوروبا من طريق الأندلس (بأسبانيا) فاهتزت وربت وأتت من كل زوج بهيج ، وأتت على آخره حملة الغرب على الشرق وتداخلهم فيه ، وفى أحواله أكثر من مائتى سنة ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بعودتهم لبلادهم بخفى حنين أستغفر الله ، بل عادوا خاسرين فى حربهم مستفيدين فى علمهم حافظين لكل التقاليد الدينية ، وقد عرفوا من أين غلبوا وأدركوا من أين أخذوا .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

كانت أهالى أوروبا غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها ، فجاءها ما أرادت عن قرب فنهضت لقطع سلاسل الذل التى لبستها من أيدى ملوكها المغرورين ، ونقضت العزائم التى قيدتها بها زعماء الدين ، ورأوا أن اختصاصهم بهذه الفضائل وعدم مشاركتهم فيها أفضل فدأبوا على العمل بها ووجهوا همتهم لسلخها عن أهلها ، فما زالت تلك الأمهات تنمو عندهم حتى مزقت حجب الجهل ، وما زالت عوائدهم تنتقل إلينا ونستعيض بها عما عندنا حتى أبادت ذلك العلم ، وانتهى الأمر بأن أضاء الغرب ذلك القبس ، وأصبح أهله فى ظلمات لا يبصرون .

لم يكتف المسلم بأن يستعين بالغربى فى معرفة سير النجوم والكواكب ، ومعرفة الفصول والمواسم المأمور هو بالنظر إليها من قبل ذلك بعدة أجيال ، بل أصبح عالة عليه يستعين به فى أقل القليل من أموره المعاشية .

فقد المسلمون لطائف شرف الاستقلال ودينهم مانحها ، وشدوا على أيديهم الأغلال ودينهم قاطعها ، واسترقوا وهم السبب فى تحرير الرقاب ، وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء فى كل باب ، فاض بينهم الغدر والزور ودينهم يحرم الخديعة ، ويخرج الغاش من أهله ، ما بالهم لا يتناصحون ولا يعتصمون، وقد عادوا لما كانت عليه الأمم الأولى ، الأغنياء يسلبون أهل البأساء والأبناء يقتلون الآباء والبنات يعققن الأمهات .

كادهم أهل الغرب كيداً بلغ سكينة العظم ، أخرجوهم عن مواطنهم وأبعدوهم عن مشارعهم وأزاحوهم عن مواقفهم ، وأصبحوا على حال من السذاجة لا يفرقون بين ما يضر وينفع ، يقولون وهم لا يستحون : إن دين الإسلام من العوادى عليهم ، والسبب الأول فى تقهقرهم ، وقد كذبوا وافتروا وهم من العماء بمكان لا يفرقون به بين عزهم أمس وذلهم اليوم ، ولا يدركون أين كانوا وإلى أين صاروا .

سيئنون غداً حيث لا ينفع الأنين ، ويبكون ولا يجدى البكاء ، لأن البلاء الذى نزل جرته الذنوب ، والله كما يثيب على طاعته يعاقب على عصيانه ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً .

اللَّهُمَّ إنا نسألك طهارة فى العقول وخلوصاً فى العمل من العوج والرياء وهداية بالعلم والأعلام ، ورجوعاً لآداب الدين التى فارقناها إنك على كل شىء قدير .

(سيرة سيدنا أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ) (*)

هو سيدنا عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر التيمى القرشى ، يجتمع مع رسول الله ﷺ فى مرة بن كعب ، وأمه : أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

ولد رضى الله عنه لسنتين وأشهر من ميلاد رسول الله ﷺ ، وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة ، وكان أعف الناس فى جاهلية ومقدماً فى قريش ، وهو من أهل مشاورتهم ومحبباً فيهم ، وأعلم لمعاقلهم ، وكان أعلم أهل زمانه بالأنساب حتى كانت العرب تدعوه « عالم قريش » ، وتهابه لحرمته وكرمه وفضله ، فقد كان ذا مال جزيل فى قومه ومروءة تامة وإحسان وتفضل فيهم يصل الرحم ، ويصدق الحديث ، ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الدهر، ويقرى الضيف ، وكانت له صحبة برسول الله ﷺ ، فلما شرفه الله بالنبوة كان أبو بكر أول رجل أجاب دعوة الإسلام من غير كبوة ، فأجمعت الأمة على تسميته بالصديق ، لأنه بادر لتصديق الرسول ﷺ ، ولازم الصدق ، فلم تقع منه هناة ما ، ولا وقفة فى حال من الأحوال ، ثم قام بدعوة إخوانه ولأنه كان محبباً سهلاً كانت رجالات قريش تألفه ، فأسلم بإسلامه كثير ، وأجاب دعوته مثل : سيدنا عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهم من صناديد الإسلام ، واشترى من أسلم من العبيد وأعتقهم فى سبيل الله ، فكانت يده الطولى مبسوطة بالفضل على السادات والموالى .

حاز شرف الصحبة بنص القرآن الكريم : ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا** ﴾ (1) ، ومن حين أسلم إلى حين توفى لم يفارقه سفراً ولا حضراً إلاّ فيما

(*) انظر : أسد الغابة : ٣/٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء ٢٧ ، تذكرة الحفاظ : ١/٢ ، شذرات الذهب : ١/٢٧ ، طبقات الفقهاء ٣٦ ، العبر : ١/١٦ ، مروج الذهب : ٢/٣٠٥ .

(1) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

أذن له ﷺ فى الخروج فيه ، وشهد المشاهد كلها ، وحمل الراية العظمى فى آخر غزواته ، وحج المسلمين وصلى بالناس فى مرضه عليه السلام ، وكل باب فى المسجد سد إلا باب أبى بكر .

قد امتحنه الله بأشد ما يمكن به الامتحان ، فله فى الإسلام المواقف الرفيعة العالية : ثباته فى قصة الإسراء ، وجوابه للكفار ، وكونه موضع سر رسول الله ﷺ عند هجرته وصاحبه فى الغار عند تحجبه ومسايره فى الطريق عند سيره ، وقد نصب نفسه للخاصة والعامة والموالى والمعادى ، وترك عياله وأطفاله بين يدى الأعداء ، وكلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر فى دخول مكة، وما كان منه من الثبات عند المصيبة العظمى التى خرست عندها فصحاء فحول الرجال يوم مات النبى ﷺ واهتمامه فى بعث جيش أسامة وقيامه فى قتال أهل الردة ، وقد طمع أهل الشرك فى الإسلام ، كما سيأتيك تفصيله ، وما زال يحج الصحابة بالدلائل حتى شرح الله صدورهم كما شرح صدره ورزقه تمام النعمة وصلاح الدين والدنيا ، فالفضل وإن كان مقسوماً بينه وبين أصحاب النبى ﷺ ، ولكنه أكثرهم أسباباً فى اقتنائه وأشدهم صواباً فى معرفة طرق نواله.

ولى الخلافة لما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى فى (١٣ ربيع الأول من سنة أحد عشر) ، وأول من بايعه عمر بن الخطاب وتبعه الرأى الغالب من أجلة أصحاب رسول الله ﷺ ، لأنه أفضل هذه الأمة وأولاها بالإمامة لفضيلته وخاصة منزلته وشدة استحقاقه من إسلامه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحد من عالمه وفى عصره على حسب صحة الأحاديث والأسانيد فى تقديم أبى بكر ، لأن رجالها أعلم وخبرهم أكثر وإسنادهم أصح ، وقد صنع أبو بكر ما صنع فى ماله، وكان المال أربعين ألفاً من الدنانير فأنفقه على نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن ماله ميراثاً لم يكد فيه أو هو غرير لم يشعر بعسر اجتماعه وامتناع رجوعه ، بل هو ثمرة كد وكسب جولان ، وتعرض لحكم الليالى والأيام ، ثم هو ثقيل الظهر بالنسل ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم يعول أبويه وما ولدا ، ولم يكن فتى حدثاً فتهزه أريحية الشباب وغرارة الحداثة ، والأعجب أنه لم يكن بإذاء هذا الإنفاق وحذاء هذا العطاء رغبة تدعو أو طمع يحدو ، لأن النبى ﷺ لم يكن بلغ من رهطه ولا من قومه قوة تصد عنه أذى المشركين من قريش ، فيطمع

فى جاهه ، بل هم على ما علمت من السطوة والقدرة ثم لم يكن له على أبى بكر يد قبل ذلك مشهورة فيخاف العار فى ترك مواساته عليها .

قضى الأمر ببيعته فصعد المنبر وقال : « أيها الناس وقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه - إن شاء الله - لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بوظيفة الإمامة من حراسة الدين وكفاية الأمة وصيانة الشرع الشريف ، فلم ينحرف عن شىء يمنة ولا يسرة ، وسار وكتاب الله يقوده وسُنَّة رسوله ﷺ تحوطه .

* *

(أعماله رضى الله عنه)

بدأ بتسيير جيش أسامة بن زيد الذى كان جهزه النبى ﷺ ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات فى بلاد العرب على أثر وفاة رسول الله ﷺ ، وشيع الجيش ماشياً وأسامة راكب ، فقال أسامة : لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا نزلت ولا ركبت وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ، ثم أوصاه وأصحابه ، فقال : (لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تفرقوا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وإذا لقيتم قوماً فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه ، فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله ، يا أسامة ، اصنع ما أمرك نبى الله ببلاد قضاعة ثم أنت آفل ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ) ، ثم ودعه فذهب أسامة وغاب أربعين يوماً ، ثم رجع المدينة ظافراً غانماً كما سيأتى ، ونفع الله جماعة المسلمين بهذا الجيش نفعاً عظيماً لأنه فت فى عضد المنافقين ، وعلمت

العرب أن المسلمين لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا بيتوا على فعله من الأذى .

نعم ، رد البلايا الكثيرة عن جماعة المسلمين ، فقد منى الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ بالمصيبة العظمى مصيبة الردة التى لو لم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لتشتت شمل المسلمين وأصبحوا شذر مذر .

ما لبثت العرب بعد علمها بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدت إلا قريشاً بمكة وثقيفاً بالطائف ، وأصبحت الناس على قسمين : تارك للدين كأتباع مسيلمة وأهل اليمن ، وهم الذين اتبعوا الأسود العنسى . ومعطل لبعض أركانه كالزكاة وهم أتباع مالك بن نويرة .

شمَّر رضى الله عنه عن ساعده غير مبال بهذه الأهوال الجسام ولا هياب لها مع قلة الجيش وكثرة العدد ، بل مع قلة المسلمين وكونهم كالغيم فى الليلة المطرة بقلتهم ، وكثرة عدوهم وإظلام الجو عليهم بفقد نبيهم ﷺ ، وهكذا الواثق بوعده سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [1] ، وقام معتمداً على ربه مستسهلاً المصاعب ، فكلل الله سبحانه وتعالى أعماله بالنجاح .

عاجلته عبس وذبيان مع جماعة من بنى أسد وكنانة ، وجاؤوا مانعى الزكاة ، وأطمعوا الناس فى المدينة لقلة من فيها ، فأعان الله المسلمين فلم تطلع الشمس عليهم حتى ولت الأعداء الأدبار ، ثم جاء أسامة فاستخلفه على المدينة وقاتل المرتدين وهزمهم ، وقد كان استراح جيش أسامة ، وثاب من حوالى المدينة فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً ، وسير الجيوش لقتال أهل الردة ، فجبر الإسلام بعد ما كسر وفض حدتهم ، وفرق كلمتهم وكسر شوكتهم والحمد لله .

خص كل قائد بناحية لقتال من فيها من أهل الردة فـ :

١ - سيف الله خالد بن الوليد لطلحة بن خويلد الأسدى ومالك بن نويرة .

و٢ - عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة باليمامة .

و٣ - شرحبيل بن حسنة لأهل اليمامة .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٧ .

و٤ - أبى أمية إلى جنود العنسى وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن .

و٥ - حذيفة بن محصن إلى أهل دبا .

و٦ - عرفجة بن هرثمة إلى أهل مهرة .

و٧ - سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن .

و٨ - العلاء بن الحضرمى إلى البحرين .

و٩ - طريفة بن حاجز إلى بنى سليم وهوازن .

و١٠ - عمرو بن العاص إلى قضاعة .

و١١ - خالد بن سعيد إلى مشارف الشام .

وزود كل قائد بما شاء الله أن يزوده من الإرشاد أحد عشر باب من أبواب الفتنة فتحت فى آن واحد ، وجرح رسول الله ﷺ لم يندمل بعد ، والأمر فى سره وجهره محتاج إلى المجاهدة الحقة ، والقائم لا بد له أن يدأب بالاستعانة بالمعروف مع من أجاب الدعوة ، واستمر على الإقرار ، ويقاتل من رفضها ولازم الإنكار، وأصحاب العجلة والفساد من العرب خشوا الإسلام والمسلمين، وقد ارتفعت الأمانة ، فالكل عيون على الكل من قبل الأعداء .

هذا الموقف من أشد المواقف الحرجة التى ليس لها إلا عزم سيدنا أبى بكر رضى الله عنه يذكى سراج هدى نبيه ﷺ بنور الحق الساطع ، ويدعو الناس إليه بعد ما ألفتهم داعى الشيطان وأدبروا عن الهوى ، وأصبحوا بعد إيمانهم كفاراً .

اجتمع المشركون واجتمع المسلمون ونازل كل قائد خصمه ، وما زالوا بهم حتى هزم الله أعداءه على يد أوليائه كما بينته أصحاب السير فى كلام طويل ، ولم يهمه أحد منهم مع كثرة المقاتلة ، ولم يغلبوا على قلتهم ، ولم يخذلوا على ضعفهم ، لأنهم بعيدون عن الهوى غير حائدين عن الصراط السوى .

لينظر الإنسان نظرة غير ذى هوى ، فيرى أبا بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين كالشعرة البيضاء فى الثور الأدهم ، والعرب كلهم أعداء له ولمن معه ، ثم ليتأمل فعله من إعزاز دين الله وقتال من كفر بالله ، ولا سلاح معه أشد من

الوثوق بوعد الله : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) ، فجازاه الله بتحقيق قوله هذا ومنحه النصر المبين والفتح العظيم ، ودانت له أمم العرب واجتمعت كلمتها بعد تفرقها ، وألف له القلوب بعد تشتتها وتوجهت همة الجميع لتحقيق قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٢) .

* *

(فتوحاته رضى الله تعالى عنه)

كانت بلاد العرب مجاورة لأكبر ممالك الدنيا إذ ذاك ، مملكة الفرس فى الشرق ومملكة الروم فى الشمال ، ولا حاجة لتكرار الكلام فى شرح ما كان يعتقده ملوك هاتين المملكتين فى نفوسهم من العظمة بعد ما قرأ القارئ فى سيرة النبى ﷺ أن كسرى أبرويز مزق كتاب رسول الله ﷺ استكباراً واستعظاماً من قراءته ، فما بعد هذا دليل على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كان من فضل تعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى هدمهما بالمرة ، وقد كانت الحال من جهة الفرس إلى أن توفى رسول الله ﷺ أن جيوش العرب فتحت اليمن وضمت إليه البحرين وعمان ، والكل مما هو تحت حماية الفرس إذ ذاك ، وكانت من جهة مملكة الروم قاصرة على كتابة كتاب إلى هرقل ملك الروم وتجهيز جيش فى السنة الثانية من الهجرة ورضاء بعض عمال هرقل بالجزية .

انتدب أبو بكر رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد ليضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية ، وذلك فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة، وأمره أن يبدأ (بالأيلة) (٣) ، وانتدب عياض بن غنم وأمره أن يبدأ بـ (المضيح)(٤) وأمدهما بما شاء الله أن يمدهما به وأوصاهما أن لا يستعينا بأحد ممن ارتد على غزو أبداً .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .
(٣) الأيلة : ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسى عند مصب دجلة .
(٤) المضيح : قرية على الفرات شمال العراق .

سار خالد بن الوليد ورتب جيشه ثلاث فرق وقصد ثغر (الحفير) [1] ، وكان صاحبه من عظماء الفرس اسمه « هرمز » تبغضه العرب وتنقم عليه لكثرة غزواته فيهم ، فسبق المسلمين على الماء ، ونزل خالد على غير ماء ، ثم تلاقيا وسط الصف فاحتضنه خالد وقتله وحمل جيش المسلمين وانهزم المشركون ، واقتسمت الغنائم وأرسلت البشائر وخمس الغنيمة إلى أبى بكر .

اتصل خبر هذه الهزيمة بملك الفرس أزدشير ومقامه « بالمدائن » [2] ، فأرسل إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده عظيم من عظمائهم ، فجمع المنهزمين من الفرس وسار بهم وبجيشه حتى وصل نهر (الثنى) فالتقى الجيشان هناك فقتل قائد الفرس وحمل جمع المسلمين على جمع المشركين ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغرق الكثير منهم فى النهر ، وأخذت الجزية من الفلاحين وساروا أمة ، وأرسلت بشرى الفتح وخمس الغنائم إلى أبى بكر .

اتصل خبر هذه الهزيمة أيضاً بملك الفرس ، فأخذ من عزمه ومن صبره ما أخذ وأحال ذلك الجبروت والاستكبار إلى حال آخر صيره ينظر فى أمره ، وألفته إلى تلك الطامة المقبلة عليه ، فسير جيشاً يقوده عظيم وفى أثره آخر يقوده أعظم منه ، ولكن كل هذا لم يغن شيئاً ولم تلتق عساكر خالد بن الوليد بعسكر الجيش الأول حتى مات القائد فى هزيمته ، وأصاب خالد أبناء من « بكر بن وائل » وقتلهم ، فكتب نصارى بكر لملك الفرس بما كتبوا ، فأمر الجيش الثانى أن يلحق جماعة المسلمين ويدرك بقية الجيش المنهزم ، ولكن القائد سير أمامه ذلك الجيش برئاسة غيره ، وسار هو إلى أزدشير ، فوجد أخبار الهزيمة وصلته فأعلّته وأصبح فى مرض عضال .

ثم حصلت واقعة « الليس » [3] ، وثبتت فيها الأعاجم لتوقعهم المدد وثبت المسلمون لتيقنهم النصر من الله :

وبعيد ما بين طـــالب رفـــه ... من زمان ومن يحاول زخراً

---

(١) الحفير : موضع قريب من الأيلة .

(٢) المدائن للأكاسرة على نهر الدجلة جنوبى بغداد شرقية وغربية ، وكان فى الشرقية إيوان كسرى .

(٣) الليس موضع على الفرات من قرى الأنبار .

فجعل الله كلمته هى العليا ، ولم تمض ضحوة النهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة ، وسار خالد بن الوليد قاصداً الحيرة [1] فى سفن فى بحر الفرات فخرج إليه (مرزبان) الحيرة ، وأرسل ماء الفرات فى الجداول والترع المتفرعة منه حتى انخفض منسوب النهر ، ووقفت سفن المسلمين على اليبس فسار خالد بالخيل ، وحاصر القصور ، وشدد حتى خرجت القسس من ديورها تصيح بأهل القصور وتطلب منهم الصلح فصالحهم على الجزية فدفعوها وأهدوه هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس ، فأرسل خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزية ، وأمر خالداً أن يعدها منها .

فلما رأى حكام ما بعد « الحيرة » فعل خالد صالحوه على الجزية وأخذ فى مكاتبة ملوك الفرس وسار إلى مدينة الأنبار [2] ، فطلب صاحبها شيرازاد فصالحه ثم سار سيدنا خالد وافتتح عين النمر عنوة [3] ، ثم سار عنها قاصداً دومة الجندل وافتتحها عنوة أيضاً .

أثار هذا من حمية العرب الذين تحت حكم الأكاسرة بهذه الجهات من عهد عظيم بسبب من قتل من العرب إخوانهم بعين النمر ودومة الجندل فطلبوا من الفرس جيشاً يكون لهم عوناً ، فأخرجت لهم فارس فارسين عظيمين فى عسكر كبير ، فكان حظهما فى مناصبة القتال مع جيوش الإسلام حظ من فات ، ثم وقعت واقعة « الفراض » ، وقاتل المشركون فيها قتالاً شديداً ثم انهزموا ، وأمر سيدنا خالد بن الوليد بالرجوع إلى « الحيرة » .

كان من حكم الحال فى ذلك الوقت أن ينصرف سيدنا خالد عن حرب العراق ويسير إلى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك ، فصرفه أبو بكر واستخلف على جيشه فى العراق « المثنى بن حارثة الشيبانى » ، فقام من الحيرة حتى أتى بابل[4]، وأقام بها حتى لاقاه « هرمز » فى جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالاً شديداً أفضى إلى هزيمته .

---

(١) هى عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهى غربى الفرات على قرب الكوفة .
(٢) مدينة على شاطئ الفرت شمال الكوفة .
(٣) بلد فى برية العراق بالبعد عن الأنبار بثلاثة مراحل .
(٤) بلدة قديمة شرقى الفرات .

كثرت الاختلافات الداخلية فى مملكة الفرس فشغلتهم عن أمرهم مع المسلمين واطمأن الحال فى كل ما فتحته جيوش المسلمين من البلاد ، فرأى « المثنى » أن يستخلف على جيشه ويقصد المدينة ليفاوض سيدنا أبا بكر فى أشياء ، فوجده مريضاً فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب ، وقال : إذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع « المثنى » ، ولا تشغلكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم ، فقد رأيتنى وقت وفاة رسول الله وما صنعته وما أصيب الخلق بمثله ، وإذا فتح الله على أهل الشام فأردد أهل العراق إلى عراقهم ، فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليه .

هذا ما انتهى إليه أمر فارس فى ذلك العهد وإذا استحضر القارئ فى ذهنه صورة بلاد العرب يرى أنها كانت محدودة بدولة الروم شمالاً ومملكة فارس شرقاً وأن الدعوة للدين بواسطة الجيوش الإسلامية قد انتقلت منها فى عهد الصديق إلى هذه الممالك ، وأن سيدنا خالد بن الوليد اتجه جهة الشرق وأزال ملك فارس عن كل الأراضى الخصبة التى فى غربى الفرات وهو ما يعبر عنه بريف العراق ، وأصبح حد مملكة فارس نهر الفرات ، وأما من جهة الشمال فالذى وقع بعد الذى علمت من كتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه إلى هرقل والكتاب الذى كتبه لملك غسان بالبلقاء والجيش الذى بعثه رسول الله تحت أمرة زيد بن حارثة فى السنة الثامنة من الهجرة وقبول صاحب جرباء وأيلة بالجزية .

وجه سيدنا أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام ، وأمره أن يكون ردءاً بتيماء لا يفارقها ، فجهز إليه ملك الروم جيشاً ، فسار إليهم خالد فافترقوا فكتب لأبى بكر بالخبر ، فكتب إليه بالإقدام فتقدم ولقيه بطريق رومى اسمه ماهان فهزمه خالد ، وكتب إلى أبى بكر يستمده فاهتم بأمر الشام فاستقدم عمرو بن العاص ، وكان والياً على صدقات سعد هديم من قضاعة ، كان أبو بكر مسيره إليها يوم عقد الألوية فى ذى القصة ، وقد كان رسول الله ﷺ وعده ولايتها ، فكتب إليه أبو بكر : « إنى كنت رددتك إلى العمل الذى ولاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ ، وقد وليته وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » .

فكتب إليه عمرو : « إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به » .

جهز أبو بكر أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين[١] ، وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن [٢] ، وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ، ووجهته البلقاء [٣] ، وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر ابن الجراح ، ووجهته حمص [٤] ، وساروا جميعاً على بركة الله ، وقد ودعهم أبو بكر ماشياً وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت الشام .

بلغ « هرقل » أمر هذه الجيوش ، فقال لقومه : أرى أن تصالحوا المسلمين ، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه من بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم ، فرفضوا رأيه فسار حتى نزل « حمص » ، وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم ، فوجه لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك [٥] ، وكل واحد أمير على جيشه والروم أمامهم وبين الفريقين خندق ، فكان الروم يقاتلون باختيارهم ، وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم وأقام الفريقان على ذلك صفر والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فأرسل الأمراء إلى أبى بكر يستمدونه ، فكتب إلى سيدنا خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه (كما قلنا ذلك عن قرب بعد ذكر واقعة دومة الجندل) .

سار سيدنا خالد ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى المسلمين فى ربيع الآخر،

---

(١) كورة : فى جنوب الشام .
(٢) كورة بالشام : تبتدئ من بحيرة طبرية وتنتهى بالبحيرة الميتة .
(٣) بلد بالشام .
(٤) مدينة شامية فى الشرق من شهر العاص .
(٥) واد فى الجنوب الشرقى من الشام .

وصادف وصوله وصول « ماهان » بجيش مدداً للروم ، فولى خالد قتاله ، وقاتل كل أمير من بأزائه متساندين ، فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعاً ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير ، فجمع الأمراء وخطبهم .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه البغى ولا الفخر ، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، وأنتم متساندون فإن هذا لا يحل ولا ينبغى ، إن من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون أنه رأى من واليكم ومحبته) .

قالوا : هات ، فما الرأى ، فقال :

(يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتعاوروا الإمارة حتى يؤمروا كلهم وأن يؤمر هو فى اليوم الأول) ، فقبلوا مشورته .

خرج سيدنا خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك ، جعل القلب « فرقاً » وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة « فرقاً » ، وأقام فيها عمراً وشرحبيل ، وجعل الميسرة « فرقاً » وأقام فيها يزيد ، وجعل على كل فرقة رجلاً من الشجعان (١) ، وكان عدد الفرق ستة وثلاثين فرقة ، وكل فرقة ألف رجل .

انتشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان ، وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الإسلامية ، ثم إن الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم وأزاحوهم عن مواقفهم فنهد سيدنا خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم ، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة ، فأخرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا خلقاً كثيراً وقاتل نساء المسلمين فى ذلك اليوم قتالاً شديداً وأبلين بلاء حسناً .

انتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة ، وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت

---

(١) فى منزلة البكباشى الآن .

سيدنا الصديق وخلافة سيدنا عمر بن الخطاب ، وتولية أبى عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش إلا بعد الفتح .

ربما يقول قائل الشأن فى الحروب أن تكون سجالاً ، فلماذا تفاوتت فى هذه الوقائع مواهب القوى والهمة والعزم مع ما هو معروف فى دولة الروم من تمام التطاول إلى اجتناء ثمار الأعمال ، ولهذا فنحن قبل ذكر خبر وفاة سيدنا الصديق ذاكرون حديثاً عن واقعة « اليرموك » : هذه إحدى وقائع العرب مع الروم ، ترد نزعات الفكر ونزغات الأهواء إن جمحت ، وتعرف الإنسان أن هداية الدين وصحة الاعتقاد وكمال العقيدة إذا تمت لإنسان ترق منه الوجدان وتلطف منه الأذهان ، وتنفذ منه البصيرة وترفع منه الفكر لاجتلاء النتائج ، ويصبح صاحبها وله من القدرة الباهرة ما لا يهتدم بناؤه أبداً .

قال الإمام أبو الحسن سلام الباهلى الإشبيلى فى كتابه الذى وضعه فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق عند الكلام على مراتب الجود ودرجات السخاء (حديث حذيفة العدوى) قال : انطلقت يوم « اليرموك » أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء ، وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه ، فلما وجدته أشرت إليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى : نعم ، فإذا برجل يقول : آه ، فأشار إلىّ ابن عمى أن أنطلق إليه فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فلما أشرت إليه سمع آخر يقول : آه ، فأشار إلىّ هشام أن أنطلق إليه فجئته ، فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات فانصرفت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات.

أى شىء أعظم من هذا الإيثار ، وأى صبر أجل من هذا الاصطبار ، لقد تقصر الألسن عن تعديله ، وتكل الأفهام عن تحديده ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

* *

(وفاة سيدنا الصِّدِّيق)

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، حم أبو بكر ، فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب ، فكلهم قال خيراً ، فدعا عثمان بن عفان وأملى هذا العهد :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويوقن فيها الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ، فإن صبر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ثم أمر بالعهد فقرئ على المسلمين وقد أطل عليهم ، فقالوا : سمعنا وأطعنا، ثم نادى عمر فقال له : « إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ ، يا عمر : إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً ، ألم تر يا عمر ، إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً ، ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة ، وآية الشدة مع آية الرخاء ، ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه ، ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو أن لا أكون منهم ، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من شىء ، فإذا ذكرتهم قلت : أين عملى من أعمالهم ، فإن حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه » .

توفى الصِّدِّيق رضى الله عنه ، وغسلته زوجه أسماء وابنه عبد الرحمن ، وكفن فى ثوبيه كما أوصى ، ودفن ليلاً فى حجرة عائشة ، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ، ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وعمره ثلاث وستون سنة .

تتوجت هذه الأيام بأعماله ، فكانت فى سلسلة الأيام من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل لم شعث المسلمين بعد فرقتهم بردة الكثير من العرب ، جرد

الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الإسلام : الروم والفرس دعاهما لدعوة الدين أو الدخول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الأمم ، لتخلص هاتين الأمتين من ملوكهما الذين يعدون رعيتهم عبيداً ونفوسهم آلهة وشهواتهم - مهما عاد ضررها على الرعية - سُنَّة وفرضاً ، ففازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها .

كانت حالة الخلافة الإسلامية إلى عهده « أنه الخليفة » ، وسيدنا عمر بن الخطاب « قاضيه » ، وسيدنا أبو عبيدة « أمينه » ، وكتابه : عثمان بن عفان ، وعلىّ بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت - رضى الله عنهم .

كانت ولايات الإسلام فى عهده عشرة لكل واحدة والٍ :

١ - **مكة** : وعليها عتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله ﷺ .

٢ - **الطائف** : وعليها عثمان بن العاصى الثقفى .

٣ - **صنعاء** : وعليها المهاجر بن أبى أمية .

٤ - **حضرموت** : وعليها زياد بن لبيد .

٥ - **خولان** : وهى قبيلة عظيمة تسكن اليمن وعليها يعلى بن منْية .

٦ - **زبيد** : وعليها أبو موسى الأشعرى .

٧ - **نجران** : وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحارث وعليه جرير بن عبد الله .

٨ - **البحرين** : من شواطئ بلاد العرب المطل على الخليج الفارسى ، وعليها العلاء بن الحضرمى .

٩ - **جرش** : وهو مخلاف باليمن وعليه عبد الله بن ثور .

١٠ - **دومة الجندل** : وعليها عياض بن غنم وقاعدة أعماله الجدة .

- وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشى المخزومى .

- وأمير جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى .

* * *

(سيدنا عمر بن الخطاب (*) رضى الله عنه)

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى (بن كعب بن لؤى) بن غالب بن فهر العدوى القرشى ، يجتمع مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى، وكنيته أبو حفص، ولقبه الفاروق.

ولد رضى الله عنه بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، وهو من أشراف قريش وإليه كانت السفارة فى الجاهلية ، فإذا وقعت قريش فى حرب بينها أو بين غيرها أو نافرهم أو فاخرهم أحد كان هو السفير فى أمرهم والنافر والمفاخر عنهم .

تربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية ، وكان من أكبر المعارضين للإسلام عند ظهوره ، ثم منّ عليه بالإسلام ، فكان من أكبر أسباب معزته ببركة دعوته ﷺ : « اللَّهُمَّ أعز الإسلام بعمر » ، فكان إسلامه فتحاً وهجرته نصراً وإمامته رحمة .

أسلم فى السنة السادسة من النبوة ، وله سبع وعشرون سنة بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، فما دان بالإسلام حتى أشار على النبى ﷺ بترك الاختفاء والتستر وإظهار الدين ، فخرج النبى ﷺ ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر ابن الخطاب (كأنه قارعة القدرة العظمى) ، ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، فلم يكن منظراً أنكى فى عيون المشركين من هذا المظهر يشق مرائرهم ويحرج صدورهم ، يودون لهم من الأذى ما يودون وما هم ببالغيه .

كان رضى الله عنه نصيراً للدين بما آتاه الله من قوة البطش غير مستخف بعمله ولا هياب لأحد ، كأنَّ الله قد اختار لسانه للنطق بالحق واختصه بذلك ليقرع الأذان ويشق الحجب ، حتى أنه عندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة لم يتسلل

(*) انظر : أسد الغابة : ٤/ ١٤٥ ، الإصابة : ٢/ ٥١١ ، تاريخ الخلفاء ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩ ، شذرات الذهب : ١/ ٣٣ ؛ طبقات الفقهاء ٣٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٥٩ ، العبر : ١/ ٢٧ ، مروج الذهب : ٢/ ٣١٢ ، النجوم الزاهرة : ١/ ٧٨ .

لها خفية ، بل جاء إلى الكعبة وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، وصاح بعظمائها : شاهت الوجوه ، وأخبرهم بهجرته وقال لهم : من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وتترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى ، فلم يجسر أحد منهم على اتباعه .

حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ من بدر إلى تبوك (وهو ممن ثبت مع رسول الله ﷺ) ، وكان عجيباً فى فعله وعمله حتى قال النبى ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم محدثون (ملهمون) ، فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » .

كأن الله قد جعل الحق على لسانه وقلبه يقول به ، وما نزل بالناس أمر فقالوا فيه وقال ؛ إلا نزل القرآن على نحو ما يقول عمر فوقعت موافقات كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرين ، وأشهرها مسألة قتل أسرى بدر ، ومسألة الحجاب، ومسألة الخمر ، ومسألة الاستغفار ، ومسألة الصلاة على أبىّ .

هو أول من سمى أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ الهجرى ، وأول من اتخذ بيت المال وكان إيراده من زكاة المسلمين ، وجزية أهل الذمة ، وخمس الغنائم ، ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين ، فكان مطهراً من المظالم نقياً عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلماً ، وأول من دون الدواوين لحصر أسماء الغزاة ، وأول من سن قيام رمضان وأنار المساجد فى لياليه ، وأول من عسى بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من جلد فى الخمر ثمانين، وأول من حرم المتعة ونهى عن بيع أمهات الأولاد وجمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من مسح السواد ، وأول من حمل الميرة من مصر إلى المدينة ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من اتخذ الدرة ، وأول من استقضى فى الأمصار ، وأول من مصرها ، اختط الكوفة ومصرها والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل ، وأول من اتخذ دار المؤمن ليعين منها المنقطع ، فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب ، ووضع فيها بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح من ذلك .

وله من الكرامات الغريبة ، ومن أشهرها أيضاً وأعجبها صيحته وهو على المنبر: « يا سارية الجبل » ، وكتابه لنيل مصر وإبطاله تلك العادة السيئة وقطعها

عن أهل مصر ، ودعاؤه على أهل العراق وقد حصبوا أميرهم : (اللَّهُمَّ قد لبسوا عليَّ) فألبس عليهم ، وعجل بالغلام الثقفى يحكم فيهم حكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم ، والحجاج يومئذ ما وُلِد .

وأكبرها دلالة على فضله وأشدها علامة على نبله رضى الله عنه ما ذكره بعض المؤرخين (١) : أن عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الإفرنج (البحر) فيكثرون بالمشرق وبلاد المغرب .

* *

(أعماله فى خلافته)

لم يغب عن القارئ أنا تركنا جيش المسلمين ببابل تحت قيادة بشير بن الخصاصية الذى استخلفه المثنى حينما قصد المدينة لملاقاة الصديق (كما ذكرنا فى ترجمته) ، وقلنا : إن نهر الفرات أصبح حداً لمملكة فارس وتركنا جيش المسلمين كذلك فى حرب الروم باليرموك بعد هزيمة الروم عنها ، وسنأخذ الآن فى سرد ما افتتحت جيوش المسلمين فى بلاد هاتين المملكتين فى مدة هذا الخليفة رضى الله عنه وأرضاه .

(أمر فارس)

ندب الناس مع المثنى وأمر عليهم أسبقهم انتداباً ، وكان أبو عبيد بن مسعود وقال له وأوصاه وصية رجل دخل بين الأمم وطبائعها فقال له : ستقدم على أرض المكر والخديعة تقدم على قوم تجرأوا على الشر ، فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، احفظ لسانك ولا تفشين سرك حتى لا تكون بمضيعة .

ثم أمر المثنى أن يتقدم إلى أن يلحق الجيش وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين ، فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة فى عشر ، وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين ببعض اختلافات داخلية على من يلى ملكهم ، ثم اتفقوا أخيراً على ولاية « بوران بنت كسرى » ، وأن يقوم بأمرها « رستم » حتى يجدوا رجلاً من

---

(١) راجع الجزء الأول من كتاب « علم الدين » ص ٣٣٩ .

بيت كسرى يصلح للملك ، فاستعد رستم لقتال المسلمين ، وجهز الجيوش فأرسل جيشاً إلى الفرات وجيشاً إلى كسكر (١) ، وآخر لملاقاة المثنى ، وأغرى الفلاحين أن ينقضوا على المسلمين فخرج المثنى من الحيرة إلى خفان (٢) ، وانتظر أبا عبيدة حتى وصل بعد شهر ، فسار منها إلى الفرس ، فهزمهم ولحقوا بكسكر فقصدها أبو عبيدة ، وقد كانت جيوش الفرس تلاحقت فالتقى بهم أبو عبيدة وهزمهم شر هزيمة وبث سراياه وتجمع بما حواليه من الأنهار ، واعتصم بمعاقله حتى جهز الفرس جيشاً آخر تحت قيادة « بهمن » المعروف بذى الحاجب ، ومعه الراية العظمى لفارس واسمها « درفش كاويان » (٣) طولها اثنا عشر ذراعاً فى عرض ثمانية أذرع مفصلة من جلود ، فحدثت بين المسلمين والفرس وقائع على الفرات انتهت بهزيمة الفرس ، وتقدمت العرب حتى مكنها الله من سواد العراق وإجلاء الفرس عنها .

تضايقت الفرس من امتداد أيدى المسلمين لأخذ الجزية واستعمال ما افتتحوه من البلاد وزوال سلطتهم من غرب الفرات ، وضعف بلاد الجزيرة وغير ذلك من الطوارئ التى تتبع الهزيمة والانكسار ، فقامت عامة الفرس وخاصتهم تتدارك هذا الاضمحلال والزوال ، فاجتمعوا ورأوا من آل كسرى رجل اسمه « يزدجرد » فتوجوه ونادوا به ملكاً عليهم ، فجمع القادة وسير الجيوش .

بلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فجمع جيشاً عظيماً تحت قيادة سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى خال رسول الله ﷺ وأوصاه بوصية تنفذ فى القلوب قبل الأذان فقال له : (يا سعد ابن أم سعد ، لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر

(١) كسكر : بلد على الشاطئ الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة ، وعلى آثارها واسط .
(٢) ماسدة قرب الكوفة .

(٣) راية فريدون أحد سلاطين العجم ، وفيما تقول الناس : إنه كان حداداً فى عصر الضحاك فلم يصبر على ظلمه ، فجمع الجلود التى كان يستعملها فى صناعته مئزراً صنع منها هذه الراية وثار على الضحاك فتبعته الأهالى ، ثم قتلوا الضحاك وولوه عليهم .

الذى رأيت فيه رسول ﷺ يلزمه فألزمه) ، فسار سعد يقود هذا الجيش الشديد ويستأنس برأى أمير المؤمنين السديد ، ومعه أهل البأس والرأى وأهل الجهاد والصبر يضم إليه أقاصيه وطلائعه ، ويجمع إليه مكيدته وقوته ويتأمل فى عورات عدوه ومكاره مقاتله ، ويرهب عدو الله وعدوه حتى وصل إلى « زرود » فبلغه وفاة المثنى من جراحه التى أصابته ، فجمع سعد جيش المثنى وضم رجاله إلى رجاله ، وعبى الجيش ، ورتب المقدمة والساقة والميمنة والميسرة ، وسار حتى نزل القادسية [١] ، فأقام شهراً لا يأتيه عدو ، ثم تراسل مع « يزدجرد » ملك الفرس وانتهى الحال على خروج رستم فى مائة ألف أو يزيدون لقتال المسلمين .

فلما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معدى كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الأسدى يستكشفان خبر الجيش ، فلم يسيرا إلا قليلاً حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف ، فرجع عمرو وظل طليحة سائراً حتى دخل جيش الفرس وعلم حقيقة ما فيه ورجع .

تلاقى الجيشان ووقعت وقعة « القادسية » التى استمرت أياماً وليالى ، ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة لنفار خيل العرب منها وأشدها ليلة الهرير التى حاربت فيها العرب والفرس من أذان العشاء حتى قام قائم الظهيرة وترك المسلمون فيها الكلام ، فلا تسمع إلا صوت الحديد كأنما ساحة القتال سوق القيون ، وانتهى الأمر بهزيمة الفرس التى لم يسمع بمثلها ، وأخذت تلك الراية العظمى وقتل فيها رستم مع الكثير من مشاهير الفرس وقوادهم وباد عسكرهم قتلاً وغرقاً، وأصبح أمر فارس بعد ما لاقته من العرب فشلاً لم تغن عنها الرجال ولا الأفيال ولا الأقيال .

مكث سعد ريثما استراح جيشه ، ثم قام عازماً على فتح المدائن ، فسار يفتح البلاد التى فى طريقه ، ففتح « البرس » و« بابل » ، والله ينصرهم بالرعب والفرس مدحورون لانهزامهم فى واقعة القادسية فى أسرع من لفت الرداء ، وناهيك بقتال من ملئ رعباً ، فهربت قوادهم قصد أحدهم « نهاوند » ، والثانى « الأهواز » ، وبقية المهزومين قصدوا المدائن فتتبعتهم العرب تشردهم وتشتتهم

---

(١) قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الآن .

ويفتحون ما يلاقونه ، ففتحوا « كونى » ، و« ساباط » ، وصالحوا أميرهم على الجزية ، ثم سار الجيش قاصداً المدينة الغربية ، فرأى المسلمون إيوان كسرى يلوح أمامهم أبيض ناصعاً ، فتذكروا وعد رسول الله ﷺ على ما رواه مسلم عن جابر ابن معمرة أن رسول الله ﷺ قال : « عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى » ، فقويت قلوبهم وعظمت همتهم ، وازداد إقبالهم واشتاقت نفوسهم إلى أن يكونوا تلك « العصيبة » المعنية بالذكر فى حديثه ﷺ ، فنادى ضرار بن الخطاب : « الله أكبر » ، هذا أبيض كسرى ، هذا ما وعد الرحمن ، وصدق رسوله ، وكبر المسلمون وحاصروا المدينة ، وفتحت القرى المجاورة ، وقد جمعت الفرس المعابر إلا معبرة واحدة أو مخاضة تصلح للعبور دل المسلمين عليها أحدهم ، فعزم سعد على قطعها ، فأمر فعبرت جماعة منهم «عدى » ليحمى الفراض حتى يعبر المسلمون ، ثم أمر المسلمين فعبروا فلم يلتفت الفرس إلا والفراض محمية والمسلمون يعبرون ، وقد سقطت الفرس فى أيديهم فهرب « يزدجرد » إلى حلوان (١) ، ودخل المسلمون المدينة من غير معارض ، ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وصلى وقرأ فى صلاته قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ (٢) ، وأرسلوا البشائر والغنائم لأمير المؤمنين ، فلما رأى رضى الله عنه ذخائر كسرى قال : « إن قوماً أدوا هذا لذو أمانة » ، فقال له على : « إنك عففت فعفت الرعية » ، ثم فتحت « جلالاء » وترك يزدجرد حلوان هرباً ، وسار إلى الرى وفتحت « تيكريت » و« نينوى » و« الموصل » و«ماسبذان» و« هيت » .

ثم مكثت « المدائن » قاعدة أعمال العراق زمناً حتى رأى سيدنا عمر فى وجوه العرب تغيراً وفى أبدانهم ضعفاً ، فأمر سعد أن يرتاد منزلاً ، فاختار الكوفة (٣) بعد اختيار واختطت وبنيت دورها باللبن ، وجعل النهج « الشارع الأعظم » (٤٠ ذراعاً) وما يليه (٣٠ ذراعاً) وما بين ذلك (٢٠ ذراعاً) والأزقة (٧ أذرع) ، وأسس

---

(١) بلدة بينها وبين بغداد أربعة مراحل ، وهى تنتهى العراق شرقاً .

(٢) سورة الدخان ، الآية : ٢٥ .

(٣) ومعناها : الرملة الحمراء المستديرة أو التى يخالطها حصباء .

مسجدها وصارت قاعدة أعمال العراق وتتبع لها من أعمال الفرس الباب وأذربيجان ، وهمدان ، والرى ، وأصبهان ، وحماه ، والموصل ، وقرقيساء ، وكلها فى الجهة الشمالية .

ثم فتحت « تستر » فتحها جيش البصرة ، ثم السويس وواقعة نهاوند ، وتم الانسياح فى بلاد العجم لضعف شوكة الفرس ، فأصبح سيدنا عمر أمير المؤمنين لا يخاف على المسلمين شيئاً من توغلهم فى البلاد ، فعقد الألوية وسارت الجيوش حتى فتحوا تبريزو (الباب) وهو (الفاصل بين الفرس وأرمينية ودولة الروسيا) ، وسار الأحنف إلى خراسان ليلاقى « يزدجرد » الذى أقام « بمرو » يثير الفرس على المسلمين ، فبلغ « هراة » من بلاد الأفغان فافتتحها ، وسار نحو « مرو الشاة جان » ، وكتب إلى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما ، فلم يغنياه شيئاً ، ثم افتتحوا كرمان وسجستان ومكران ، وانتهوا إلى دوين النهر إلى الحدود بين الفرس والسند .

إلى هنا انتهى ما فعله المسلمون بالبلاد الفارسية جئنا منه بنتف مختصرة تدلك على غايته مفصلاً .

لا شك أن الإشراق النبوى كان ملازماً لهؤلاء الفاتحين والمدد المحمدى يمدهم وإلا فكيف تبتدئ هذه الحروب سنة اثنتى عشرة من الهجرة بفتح أول بلد من بلادهم ، وهى « الأبلة » من حدود بلاد العرب غرباً ، وتنتهى إلى ما وراء النهر وبلاد السند شرقاً والخليج الفارسى جنوباً وبحر الخزر وأرمينية والروس شمالاً فى هذه المدة التى لا تكفى مرتاداً يريد أن يتعرف طبيعة هذه البلاد لشدة جسامتها .

جاء « الهرمزان » المدينة ولاقى سيدنا عمر بن الخطاب وقال له فيما قال : (يا عمر ، كنا وإياكم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، فلما كان الآن معكم غلبتمونا ، قال له عمر : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا) لم ينكر سيدنا عمر بن الخطاب غلبتهم للعرب ، ولم ينكر السبب ، فانظر لهذا الائتلاف والاتحاد فى القلوب كيف جعلها قلباً واحداً تتحرك برأى واحد وإن كانت فى أجساد مختلفة .

عم الدين الإسلامى فجمع الحائدين للصراط السوى والمنهج القويم ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن جور الملوك إلى عدل الإسلام .

اجتمع الفرس والعرب فى وقائع كثيرة مشهورة ، ولم ينكسر لقوادهم راية ، ولم يفل لهم جيش ، ولم ير المسلمون فى واقعة من الوقائع مساوين لأقرانهم فى العدد والعُدد ، بل كانت الفرس فى كل واقعة أضعاف العرب ، فما هذا الحال العجيب والنصر الغريب الذى لو أضيف إليه ما هو محقق باليقين فى الفرس من المهارة فى تعبية الجيوش وإحكام معدات الدفاع ووفرة الأموال والعلم بطرق الدسائس والخداع لعدت مغلوبيتهم نادرة ، وغلبة العرب معجزة .

انظر لنور الإيمان الذى سطع فأزال كل ما يلحق النفوس من الجبن ، والذل ، والخوف ، وصرف الأيدى عن النهب والغارة ، وانظر للقواد الذين لا يخشون تهديداً ولا وعيداً ، ولم يسلكوا بالأمة مسلك الأهواء لأنهم لم يكونوا دخلاء يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم كانوا متفانين فى حب الدين ليس لهم شأن إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك الزهو والكبرياء وحب الدنيا .

هذه يد بيضاء فعلت فى الفرس ما تبين لك أمره ، فانظر لأختها كيف كان أثرها أيضاً مع دولة الروم .

قلنا فى أول الكلام : إننا تركنا المسلمين فى حرب جيش الروم باليرموك بعد موقعتها الهائلة وهزيمة الروم عنها ، وأمير الجند أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح .

بلغه رضى الله عنه أن مدداً أتى دمشق فحصرها المسلمون ، أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى ، ودام الحصار سبعين ليلة حتى فتحت ، وفتح بعدها حمص وحماه والمعرة واللاذقية وحلب وقنسرين حتى وصلوا إلى قرب أنطاكية .

ثم بدا لسيدنا عمر أن يطوف على المسلمين فى بلدانهم لينظر آثارهم ، فسار عن المدينة ومعه غلام وبعير ، واستخلف عليها سيدنا علىّ بن أبى طالب ، وقدم الشام فسد فروجها ، ورتب صوائفها وشواتيها (١) ، واستعمل سيدنا معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الأردن ، وقال : ما عزلته عن خيانة ولا جور ، ولكن أريد رجلاً أقوى من رجل .

---

(١) الصوائف والشواتى : هى السريات التى تحارب صيفاً وشتاء .

ثم قيل له : لو أمرت بلالاً ، فأذن فأمره فأذن ، فلم يبق أحد أدرك النبى ﷺ إلا بكى حتى بل لحيته ، وعمر أشد الناس بكاء .

ثم استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر ، وذكر له خبرها وأنها قوة عظيمة لملكة الروم ، وكان عليها وال من قبلها يقيم بالاسكندرية ، فسيره ، فقام لها بجيش كثيف ، ثم اتبعه الزبير بن العوام وفتحت وعاقد أهلها على الأمان ، ونزل المسلمون « الفسطاط » ، واختطوا حوله وأسس عمرو مدينته ، وشيد مسجده ، ثم سار إليي الاسكندرية ، واجتمع له بينها وبين الفسطاط جماعة من الروم والقبط فأثخنهم ثم وصل إلى الاسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح مصر ، فلم يقبلوا ففتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة ، وارتحل الروم إلى القسطنطينية ، وأقام المقوقس والقبط على الصلح الذى عقده لهم عمرو وأبقى المقوقس على رئاسة قومه ، وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل من المهمات إلى أن توفى ، وكان يقيم بعض الأوقات باسكندرية ، وفى بعض الأوقات بمنف بمصر .

وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون أيضاً مع الروم فى مدة سيدنا عمر ، أخذوا ولايتين عظيمتين : الشام ومصر ، وجزء من الأناضول ، وبالإجمال أضعفوا شوكتهم وأذلوا ملكهم وأذلوا دولتهم .

انظر لهذه الفتوحات التى أطاش أمرها الأحلام ، وحير الأفكار والأفهام ، وتأمل لمنصب الخلافة الحقيقية فى تلك الأيام ، وما يحف جماعة المسلمين من حرية فى دين وعلم فى يقين وسعة فى الوسائل المدنية الحقة ، والأمة قريرة العين بما تغنمه من نهضات الهمم بالفتح والإصلاح والأمور مستقيمة على مثل ما دعا إليه الإسلام ، ونوره ساطع على الديار التى بلغها أهله ، والقلوب تفيض غيرة منه ، والألسنة تتدفق فصاحة به ، وكأنما المسلمون ربيع يساقون إلى جدب ، فلم ينزلوا أرضاً حتى يحيى الله مواتها بهم وينفع غلتها ببركتهم .

انظر لمقام الخلافة مقام النيابة عن رسول الله ﷺ ، تراه مشغولاً بحراسة الدين وسياسة الدنيا ، مستمداً لأفعاله وأعماله وأقواله من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والأمة باذلة له الطاعة فى سرها وجهرها ، وهو لا يعتقد فى نفسه أنه أرقى درجة منها . يقول سيدنا أبو بكر : (قد وليت

(قد وليت عليكم ولست بخيركم) ، والفاروق رضى الله عنه يقول : (من رأى فىّ اعوجاجاً فليقومه) ، وحاله بين المسلمين فى مالهم وجبايتهم وخراجهم كوصى اليتيم إن استغنى استعفف وإن افتقر أكل بالمعروف ، وشغله بعد هذا النظر فى طلبات الرعية وتفقد أحوال البائسين من الأمة حتى لا يكون لأحد عليه حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فتراه يحمل الدقيق على ظهره ليوصله إلى الفقراء والمساكين ، أو يدرك بالطعام صبية يتضاغون وأمهم تلههم حتى يناموا ، وهو رضى الله عنه (غلق الفتنة) كما قال ﷺ : « لا يزال بين المسلمين وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهرهم » (١) .

وأركان الدين قائمة : الصلاة ، إمامة المسلمين فى الصلاة راجعة إلى أرفع وظائفه .

والزكاة القاطعة لكل احتيال بين أفراد الأمة ، فلا سلب ولا سرقة ولا ضغينة تولدها عداوة ، والحج من بقاع الأرض يجددون به للأمير عهدهم ويشهرون طاعتهم .

والصوم الذى به تتهذب النفوس ، وتذوق به الأغنياء مرارة الفقر فترحم الفقراء .

والحدود قائمة لا يختل نظامها أبداً .

والجهاد على ما علمت من أخبار هذا الفتوح .

انظر لمواضع الشبه والنزعات الفكرية تجدها واقفة عند حد سلامة الاعتقاد ، والفقه عبارة عن علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب : ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (٢) ، والتوحيد عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عزّ وجلّ رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، وهكذا والناس فى شغل شاغل بنصرة دين الله والاجتهاد فى تعميم أمره عن المشاحنة فيه ، ماذا يعده

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٢ .

الدهر الخؤون من البلايا والمصائب ينزل بها على المسلمين وهم فى أهنأ أوقات حياتهم وزيادة عزهم وسلطانهم ؟ وبماذا تخرج الأيام عليهم وقد ظفروا بكل ما اشتهوا ونالوا جميع ما ابتغوا ، فتحرمهم لذة ما ذاقوا وتقطع عليهم ما يتذوقوا ؟ أى مصيبة تعدها الليالى إفساداً لحفاظ هذا النظام وسلباً لروح هذا البقاء ؟

* *

(مقتل سيدنا عمر بن الخطاب)

ليس بعد المصيبة برسول الله ﷺ أعظم وأكبر منها به قاصم الظهور وجائح النفوس نزعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الإنسانى ، قوضت الأصل وخرمت العلائق بين الصحب والأهل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أتت مصيبة على المسلمين وكأنهم لم يسمعوا بالمصائب ويجهلون طرق العزاء فيها فأدهشتهم ، فهم إلى أنهم مذهولون منها أكثر مما هم محزونون .

أصيب رضى الله عنه فى المسجد بعد ما كبر ، سمع عنه يقول : قتلنى أو أكلنى (الكلب) حين طعنه أبو لؤلؤة ، وهو غلام مجوسى كان بعثه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة لما يعلمه من الصنائع والأعمال التى فيها منافع للناس ، فضرب عليه مائة درهم فى الشهر ، فاشتكى إلى عمر رضى الله عنه فقال له : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطاً يتذمر ، ثم بعد أيام سأله عمر رضى الله عنه عن رحى تطحن بالريح كان أوصاه عليها ، فقال له : سأصنع لك رحى يتحدث الناس بها ، فقال عمر لأصحابه : لقد أوعدنى العبد ، ثم كان منه الذى كان من طعنه بخنجره ، وطعن كل من يمر عليه فى المسجد يميناً وشمالاً حتى لقد طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، ثم انتحر .

نظر عمر رضى الله عنه فيما عليه من الدين ، وأوصى بوفائه ، ثم استأذن عائشة رضى الله عنها أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، ثم قيل له : أوص يا أمير المؤمنين ، قال : لا أتحملها حياً وميتاً إن استخلفت ، فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) ، وأن أترككم فقد ترككم من هو خير منى (يعنى رسول الله ﷺ) ، ثم قال : فأوصى بالأنصار خيراً والمهاجرين والأعراب ، واستقبل الله بقلب سليم رضى الله عنه وأرضاه .

* * *

(سيدنا عثمان بن عفان) (*)

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الأموى .

ولد فى السنة السادسة من الفيل وأسلم قديماً ، وهو ممن أجابوا دعوة الصديق حين دعاهم للإسلام ، وهاجر الهجرتين : الأولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها (إلا بدراً) لشغله بتمريض زوجته بنت رسول الله ﷺ ، وأسهم له رسول الله ﷺ فى غنيمتها وزوجه بنته الثانية ، ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره ، ولذلك سمى ذا النورين ، فهو من السابقين الأولين ، وله خصائص جميلة ، منها : أنه هو أول المهاجرين وأحد العشرة المشهور لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن (جمع الناس على مصحف واحد) .

وله أوليات ، منها : أنه أول من أقطع القطائع ، وخفض صوته بالتكبير وخلق المسجد ، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض للناس إخراج زكاتهم ، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ فى المسجد مقصورة ، مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر (وما أغنى حذر) .

بويع له بالخلافة بعد ما دفن عمر بثلاث ليال والناس تستشير وتختلف إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه فى من يلى منصب الخلافة ، ولا يخلو به رجل ويعدل بعثمان أحداً، وكذلك كان رأى أكثر أعيان الصحابة وأغلبية الشورى.

(*) انظر : أسد الغابة : ٣/ ٥٨٤ ، الإصابة : ٢/ ٤٥٥ ، تاريخ الخلفاء ١٤٧ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٢١ ، شذرات الذهب : ١/ ٤٠ ، طبقات الفقهاء ٤٠ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٥٠٧ ، طبقات القراء للذهبى : ١/ ٢٩ ، العبر : ١/ ٣٦ ، مروج الذهب : ٢/ ٣٤٠ ، النجوم الزاهرة : ١/ ٩٢ .

شب عثمان رضى الله عنه على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة والحياء الذى خصه الله منه بأجل السهام ، وضرب له فيه بأوفر الحظوظ والأقسام حتى كانت تستحى منه الملائكة ، كانت له اليد البيضاء فى تجهيز جيش العسرة إلى تبوك ، فقد أنفق من ماله ما لا يجود به غيره ، وحفر بئر « رومة » وتصدق بها ، وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد من الناس .

زاد فى مسجد المدينة ووسعه وبناه بالحجارة ، وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج ، وجعل طوله (١٦٠ ذراعاً) ، وعرضه (١٥٠ ذراعاً) ، وناهيك برجل ما مرت به جمعة منذ أسلم حتى أعتق فيها رقبة ، كان عاملاً أميناً للخليفتين رضى الله عنهما بعد النبى ﷺ ، وعمل فى خلافته ست سنين لا ينقم عليه أحد ، وكان أحب لقريش من عمر بن الخطاب ، لان لهم ووصلهم وفعل معهم خيراً .

* *

(أعماله فى خلافته)

فى حفظ القارئ أننا ذكرنا ما وصلنا إليه من أمر عسكر المسلمين الفاتحين فى مملكتى الروم والفرس فى عهد الخليفتين : الصديق والفاروق ، ولنذكر الآن ما زاد على ذلك من الفتح فى أيام الخليفة ذى النورين وما جرى فى هذه البلاد .

(الكوفة)

استفتح سيدنا عثمان فى بدء خلافته باستعمال سعد بن أبى وقاص عليها عملاً بوصية عمر رضى الله عنه ، ثم عزله لخلاف وقع بينه وبين ابن مسعود الذى كان على خراج الكوفة ، وعين بعده الوليد الأموى ، وعزل عتبة بن فرقد عن «أذربيجان» فانتقض أهلها فغزاهم الوليد ، وأغار على أهل « موقان » و«الطيلسان» ، ففتح وغنم وصالح كور « أذربيجان » ، وسير جيشاً إلى أهل أرمينية فشتتهم وأقام والياً على الكوفة حتى شرب خمراً وشهدت عليه جماعة ، فأفتى علىّ رضى الله عنه بعزله بعد جلده ، فعزله عثمان وجلده وولى مكانه سعيد بن العاص ، فقبلها على كره لأنه ممن أحس بالفتنة هناك خصوصاً وقد حمله عثمان رضى الله عنه على تفضيل أهل السابقة والقدم ، ومن فتح الله على يده تلك البلاد .

فشت القالة فى الكوفة فى حق سيدنا عثمان وسعيد عامله رضى الله عنهما ، ثم سار الكوفيون لفتح « طبرستان » ففتحوها ، فلما بلغوا « أذربيجان » تلاقوا بجيوش الشام ، وكانت بلية حب الرئاسة دبت فى النفوس واستقرت فى الصدور بسبب التنافس فى الأغراض ، فاختصم رجال الجيش ، ثم وقع من الكوفيين ما وقع من الاستخفاف بأولياء أمورهم ، وكثرت وقائعهم فحملت رؤساؤهم إلى الشام لمعاوية رضى الله عنه ، فلم تفدهم نصيحته فبعثوهم إلى « حمص » لعبد الرحمن خالد بن الوليد فأدبهم ، ثم اتفق أهل الكوفة على خلع سعيد فخلع وتولى أبو موسى ، وبقى مع أهل الكوفة ينازعهم وينازعونه حتى مات سيدنا عثمان .

(البصرة)

وكان والى البصرة « أبو موسى الأشعرى » فعزله أيضاً ، وولى عبد الله بن عامر ، فبعد قليل انتفض أهل فارس على أميرهم عبد الله وقتلوه ثم غدرت أهل « اصطخر وخراسان » فسار إليهما عبد بن عامر وصالح أهلهما ، ثم انتقل لغيرهما من البلاد حتى مكن الله الأمن فى تلك الجهات ، وبينما هو كذلك ، وإذا بعبد الله بن سبأ اليهودى نزل علّى حكيم بن جبلة العبدى بآراء غير مقبولة ، فأوغر الصدور على سيدنا عثمان ، ثم طردوه فدار الأمصار حتى أتى مصر ، وكان من أكبر الأسباب التى دعت لشق الطاعة فيها والافتراق والاختلاف .

(الشام)

أما الشام فقد كان جمعها فى أول خلافته رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان، فقام بالغزوات البرية والبحرية حتى بلغ عمورية وتمكن من الحصون التى بينها وبين طرسوس وأنطاكية ، ثم افتتح « جزيرة قبرص » ، وكان المستعمل على غزو البحر عبد الله بن قيس ، فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها ، ثم قارب طليعة فانتهى لمرفأ من الروم ، فجاؤا فقتلوه ، وبينما الحال كذلك خرج أبو ذر الغفارى فى الشام بمذهب يشبه مذهب الاشتراكيين (أستغفر الله العظيم) الآن ، لأنه كان ينادى : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، وكان يستدل بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ

فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [١] ، فشكا الأغنياء ما يلقونه لمعاوية ، وحق لهم أن يشكوا ، لأن أول واجب على أهل السلطان تأمين الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم ، وهذا الحال من أكبر مواضع الخوف ، فكتب إلى عثمان رضى الله عنه فى شأنه بما كتب ، فطلب منه أن يشخصه إليه ، فلما وصل المدينة ولاقى سيدنا عثمان رأى الأولى به أن يسيره إلى الربذة [٢] ، فأقطعه قطعة من الإبل وأقام منفرداً إلى أن مات .

(مصر)

أما مصر فقد كان فيها فاتحها عمرو بن العاص ، فجعله سيدنا عثمان على الجند وولى عبد الله بن سعد خراجها ، فلم يتفقا فجمع سيدنا عثمان لابن سعد الخراج والجند ، وعزل ابن العاص عنها ، ثم رأى أن يغزو أفريقيا فسير جيشاً للغزو فيها ، وفتح ما شاء أن يفتح وقتل جرير ملكها ، وما كاد هذا الحال يتسع ويستقر حتى وصلها عبد الله بن سبأ يحمل أسباب الفتنة ودواعى الشر كما سيجىء إليك .

(فصـــل)

تأمل تجد فى كل مصر من الأمصار بادرة كأن الدين وقع فى يد من لا يفهمه أو فهمه وتغالى فيه أو لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج ، ولكن ضيق عقله ضل عن تصريفه ، أو كأنما أفتكت من المسلمين العزيمة الأصيلة أو اختلت دعائم الاعتقاد القديم ، فإما إفراط باسم الدين كمقالة أبى ذر الغفارى التى لا تنطبق على مصالح البشر ، وإما تفريط كالكلام فى التنفير والانحراف عن سيدنا عثمان رضى الله عنه كدعوى عبد الله بن سبأ (والعياذ بالله) .

يعجب الإنسان أن أهل الدعوى للخير أصبحوا وليس لهم قدرة فى استعمال أى ضرب من ضروب القوة فى حمل الأمة على الآداب الدينية ، كأن نورها الذى كان اخترق القلوب نفذ منها .

ساءت حال أمة انتقل بأسها من أعدائها لنفسها فهى أقرب إلى الفوضى من

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

(٢) موضع قرب المدينة .

الإصلاح وأدعى للتفرقة من الالتئام ، والسبب العظيم لهذا البلاء الجسيم هى الفتن - لعن الله مثيرها - ، ولذلك قال تعالى : ﴿ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٢) ، وقيل فى الأثر : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » .

قلنا : إن سيدنا عثمان ولى الخلافة واستمر ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وأنه لأحب إلى قريش من سيدنا عمر بن الخطاب ، لأن عمر رضى الله عنه كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ، ثم توانى فى أمر بعضهم لما رآه فيهم .

اضطرت حالة ظهور القالة وفشو المنكر فى الأمصار أن يستعمل عليها أقرباءه وأهل بيته فى الست الأواخر من عهد خلافته لاختصاص أولئك به أكثر من غيرهم، فكان هذا العلاج من دواعى استفحال الداء وزيادة الانحراف عن باب الخلافة .

استكمل الفتح للأمة ، واستكمل الملك ، ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة ومصر ، فالمختصون بصحابة رسول الله ﷺ وهم المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم يمتون بذلك ويتشرفون به (ونعم الشرف) ، وسائر العرب الذين كان لهم فى الفتوحات قدم يرون لأنفسهم فضلاً ويفخرون به (وحق لهم الفخر) نبههم لذلك وألفتهم لمعنى التفضيل والسابقة انغلاق باب الفتوح ، وتناسى ذلك الحال، وذل العدو وزواله واستفحال الدعوة الإسلامية لهم ، وعظم ملكها فيهم، فأخذت عروق الجاهلية تنبض وأنوف نفوسهم تشمخ .

وافق ذلك أياماً من أواخر عهد سيدنا عثمان ، وقد كانوا أخذوا عليه قبلها إخراج أبى ذر الغفارى إلى الربذة (وقد سمعت خبره) ، وزيادة النداء الثالث يوم الجمعة ، (وإنما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى أنحاء المدينة) ، وإتمامه الصلاة فى مِنَى وعرفة ، وكان الأمر فى عهد رسول الله ﷺ والخليفتين على

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩١ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .

القصر (وعذره فى ذلك : أن حاج اليمن جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاته رضى الله عنه ، فلم يرض بذلك لمن اتخذ بمكة أهلاً وله بالطائف مال)، وتنازله لمروان بن الحكم عن خمس مغانم أفريقية ، ولم يمنع الشرع أن ينفل من شاء من المسلمين ، وقد كان رسول الله ﷺ ينفل ، نقموا هذه الأمور على سيدنا عثمان ، ولم يكن فيها ما يشينه ولم يخرج فى شىء منها عن حدود الشرع ، ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لأنفسهم ما ليس لهم ، فحقت عليهم العقوبة .

قال الإمام العينى فى تاريخه « عقود الجمان » : (وقد ذكر السبب فى ذلك ما معناه روى أرباب السير منهم هشام ، والواقدى ، وسيف ، وغيرهم عن عقبة ، عن يزيد الفقعسى : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء ، أسلم فى أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان ، وكان قصده بوار الإسلام، كان يتنقل فى البلدان يحاول الفتنة ، فطاف الحجاز والشام والعراق ومصر ، وطاف كورها ، وأظهر الأمر بالمعروف ، وهو ينفر الناس من عثمان ، فخرج معه جماعة من مصر من أهل خربتا ، وهو أول وفد قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان على أعمال عماله الأمويين بالأمصار .

دارت رحى الفتنة فى المدينة وملؤها كلاماً فى حق أمراء الأمصار ، وبعث سيدنا عثمان إلى عماله أن يوافوا الموسم ، فقدموا عليه وهم عبد الله بن عامر أمير البصرة ، وعبد الله بن سعد أمير مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وبعد كلام كان معهم استشارهم فى تسكين هذه الفتنة ، فقال عبد الله بن عامر : (اشغلهم بالجهاد) ، وقال ابن سعد : (استصلحهم بالمال) ، وقال معاوية : (اجعل كفايتهم لأمرائهم وأنا أكفيك الشام) ، وقال عمرو : (أرى أنك قد لنت ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريق صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين) ، فقال سيدنا عثمان : قد سمعت كل ما أشرتم به ، ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين إلا فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكونن لأحد علىّ حجة ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً ، وإن رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، سكنوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا ثم نفر ونفر الأمراء إلى بلادهم .

أما أصحاب الفتنة الناقمون على عمال الأمصار المنحرفون عن عثمان ، فلم يرتدعوا عن غيهم ، وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم فيها : اقدموا علينا ، فإن الجهاد عندنا ، فاتعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج .

اجتمع الكل بالمدينة : (٥٠٠) من مصر وعليهم الغافقى بن حرب ، ومثلهم من الكوفة ، وكذلك من أهل البصرة ، وكل هذه الطوائف متفقة على الانحراف على عثمان (مختلفة فيمن يتولى الخلافة بعده) لكل منهم رأى وهوى ، فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله ، والبصريون الزبير بن العوام ، والمصريون « علياً » ، فجاء كل قبيلة لمن لهم فيه هوى وسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم ، وأتى أهل مصر « علياً » ، فسلموا عليه وعرضوا أمرهم ، فصاح بالمصريين وطردهم وقال : لقد علم الصالحون إنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، وكذلك قال طلحة والزبير ، ثم استقر الحال على الإذعان بما طلبوه من إعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم ، واستعمل على مصر محمد بن أبى بكر ، وكتب له عهده ، وخرج محمد ومن معه يريدون مصر ، وانصرف الجميع مظهرين الرجوع .

لم تتفرق أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها ، وقد أحيط بدار عثمان ونودى: من كف يده فهو آمن ، فلزم الناس بيوتهم ، واستغربوا من رجوع الثوار بعد الإذعان ، وجاء محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم : ما الذى أرجعكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا ، فسأل البصريين عن مجيئهم ؟ فقالوا : لنصر إخواننا ، وكذلك قال الكوفيون ، فقال : كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم من صاحبه على مراحل حتى رجعتم إلينا جميعاً ؟ (هذا أمر أبرم بليل) ، فقالوا : اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتز لنا ، فأخذوا منهم الكتاب ، فإذا هو من سيدنا عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح ، يقول له فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم ، فقالوا لهم : وكيف اتصل بكم هذا الكتاب ؟ قالوا : بينما نحن مع محمد بن أبى بكر على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة وإذا بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطاً كأنه رجل يطلب أو يطلب ، فقلنا له : ما قصتك وما

شأنك كأنك هارب أو طالب ؟ فتلجج ، ومرة يقول : أنا غلام أمير المؤمنين ، ومرة يقول : أنا غلام مروان ، ففتشناه فوجدنا معه إداوة يبست فيها شي يقلقل فشققناها ، فإذا فيها ذلك الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على سيدنا عثمان وسألوه فى ذلك ، فقال : والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت ، فقال « على » ومن معه من كبار الصحابة : صدق عثمان ، فقال المصريون : إذاً من كتبه ؟ فقال عثمان : لا أدرى ، قالوا : فيجترأ عليك ، ويبعث غلامك ، وجمل من إبل الصدقة ، وينقش على خاتمك ، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدرى ، قال : نعم ، قالوا : ما أنت إلا (صادق) أو (كاذب) فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا ، وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر ، ولا ينبغى أن يترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه ، فاخلع نفسك ، فقال : لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله .

امتد الشقاق بقوة سلطان المغالبين ، فلم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب ويبين للناس ما اختلفوا فيه ، ويكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، أو يتفكر فى كيفية رجوع هذه الفرق معاً بعد افتراقها وبعد سلوكها طرقاً مختلفة ، أو يكشف الغطاء عن ذلك السم السارى من قديم الذى دعى مثل عبد الله بن سبأ للخروج والتجول فى الأمصار ، أو يوفق الله جماعة الصحابة إلى الوقوف أمام هذه الفتنة ، وقد كشرت عن نابها بل ضاع السداد وضعف الرشاد ، وقامت نزعة الحرب بين أهل الدين ، وقد كان إطفاء مثل هذه النار من أسهل الأمور قبل ذلك على أى رجل من الجمهور الإسلامى .

دافع سيدنا عثمان رضى الله عنه كثيراً عن نفسه ، وكتب للناس كتاباً قرأه عليهم ابن عباس يوم التروية وأكثر من الرضوخ إلى مطالبهم ، وكلما سد باباً فتحوا غيره ، حتى منعوا عنه الماء فجاءهم علىّ رضى الله عنه فقال : يا أيها الناس ، كيف تقطعون الماء والمادة والروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى ؟ فقالوا: والله ولا نعمة عين .

ثم إن الثوار منعوا الناس عن مخالطته ومكالمته وقصدوا باب داره وحصروه ، فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة ، فأمر عثمان بالكف عن القتال (انظر إلى

وازع الدين الذى كان فى نفس هذا الخليفة رضى الله عنه جعله يؤثره على أمور الدنيا وإن أفضى ذلك للهلاك وحده دون الكافة ، فمنع المقاتلين عنه) ، ثم جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه ، فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى ذلك لهلاكه .

ثم أحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن ، فلم يشغله ما رأى عن تلاوته ، ثم قال : إن رسول الله ﷺ قد عهد إلىّ عهداً فأنا صابر عليه ، ولم يحرقوا الباب إلا وهم يريدون أعظم منه ، وأمرهم بالانصراف ، ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاء فقتلوا هذه النفس الزكية .

قتلوا خليفتهم ، وزوج بنتى نبيهم ، ذى النورين ، قتلوه ظلماً ، فقاتله ظالم، وخاذله معذور ، مات شهيداً مبشراً بالجنة على بلوى واختبار بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت ، وأظنوا [(١)] أصبعين من أصابع زوجته ، ولم يكن ما فعله من تجهيز جيش العسرة ، وحمد رسول الله ﷺ مسعاته وقوله له : ما على عثمان بن عفان ما عمل بعد اليوم ، ولا على احتجاجه عليهم ولا إفحامه رادعاً لهم ولا كاسراً من غربهم حتى وطئوا أضلاعه بعد موته ، وألقوا على التراب جسده بعد سحبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

نعم ، قد قرر الإسلام العبودية لله وحده ، والحرية فى ضمن دائرة الشريعة المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات وإطلاق الإرادة والفكر من سلطة كل زعيم ، وسيطرة كل رئيس ، ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبداً كاملاً لله حراً كاملاً بالنسبة لما سواه .

نعم ، كان الصحابة يراجعون النبى ﷺ الرأى قائلين له : هل هذا شىء قلته من عندك يا رسول الله ، أو نزل به وحى ، فإن قال : هو من عندى جاءوا بما عندهم من الرأى ، وربما رجع النبى ﷺ إلى رأيهم ، كما قد جرى فى بعض الغزوات والأمور المعاشية ، وقوله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

---

(١) أظن أصبعه : قطعه .

نعم ، وقع أبلغ من هذا : أن النبى ﷺ طعن سواد بن غزية بقدح [1] فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدر ، فقال : قد أوجعتنى فأقدنى ، فكشف له عن بطنه ، وأذن للناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه ، وإذا كان نحو ضرب فليقتص منه ، وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يوماً ، فقال : إننى كنت عارى الكتف أو الظهر فألقى الرداء عن عاتقه الشريف ، وشأن الرجلين أن يتمسحا به ويتوصلا لهذا الشرف العظيم ، نعم ، إن الصديق ، والفاروق اقتديا بالنبى ﷺ فى مثل هذه الأعمال ، فأوقف سيدنا عمر بن الخطاب « علياً » مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة فعاتبه « علىّ » رضى الله عنه بعد المحاكمة بأن لم يسو بينه وبين خصمه ، كناه هو ، وسمى ذاك وفى التكنية تعظيم وراجعته امرأة وهو على المنبر فى مسألة تحديد المهر محتجة بآية : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [2] ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

كان هذا كله وحسن التربية شائع فى الأمة على منهاج الكتاب والسُّنَّة ، وكل فرد حاصل على دقائق الأدب ، والتهذيب علماً وعملاً وتخلقاً وتحققاً ، جار على أكمل نمط ، وطهارة الظاهر تحاكى طهارة الباطن صافية عن الكدر ، والآداب راقية بذويها وأهلها إلى مصاف الملك فضلاً عن البشر .

أهين بهذا التطرف والغلو فى الافتئات مقام الخلافة الذى كان حفاظ الدين ، وكانت تلك الصدمة الأولى أهين ذلك المنصب الشريف الذى كان إليه المرجع فى حل المشكلات ، والضياء فى ظلمة الشبهات ، واحتلبوا بذلك دماً لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته ، ولا يكل طالبه ، وكيف يضيع دمه وقد انفصمت بذلك عروة الوحدة وانحلت رابطة الاجتماع ، ونجم عن التفرق فى الخلافة الافتراق فى الدين نفسه ، فآلت الأمة إلى الشقاق ، وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة ، وابتلى الدين وأهله بالمنازعة التى انقضى الزمان والأمة تتكلف علاجها ولا تعان عليه ، وصدق « على » رضى الله عنه فى قوله : « إن قتلته ثلموا فى الإسلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة » ، ومن يرد التعدد إلى توحد والافتراق إلى اجتماع ، وهو من وظائف الخلافة التى حدث عنها هذا الشقاق :

---

(١) سهم لا نصل له .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٢٠ .

من غص داوى بشرب الماء غصته فكـيف يصـنع من قد غص بالماء

هذه نتيجة الخروج على أولياء الأمور وأهل السلطان ، فليندب المسلمون حظهم بعد هذه البلوى التى أصابت مستقر الحقيقة بسبب الإسراف فى حرية الدين والفكر إلى هذا المقدار ، وجعل مزاياه الشريفة من العوادى عليه بسبب سوء الاستعمال ، وليتق الله كل واحد من الزعانف الذين لعبت بهم الأهواء وأشعرت قلوبهم الأعداء بمثل هذه الظنون السيئة .

استقامت الدنيا في عهد الصاحبين ، ففتحت الفتوحات العظيمة التى لا نزال نفاخر بها الأجيال المتأخرة ، ولو استمر الحال على ما كان لأمسى الدين الإسلامى نطاقاً على الكرة الأرضية لا بدعوة الغلبة والقهر على لسان السيف كما يدعون ، ولكن بدعوة الحجة والبرهان على لسان الحق إن كانوا يعقلون .

هذه بعض آياته : اتفاق ووفاق ، وإرادة سامية ، وحرية فكر مطلقة ، ومحافظة على الجار والجوار ، ومحبة اتصلت بإعماق القلوب ، وجد فى العمل وكراهة للقعود والكسل ، وميزان قسط قائم بالحق بين الناس ، وبصيرة فى كل شيء ، وقواعد عدل تمنع الاسترقاق ، وتحظر الاستعباد ، وحفظ عهود وصدق ووفاء ، وتحريم للفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فلا غدر ، ولا خيانة ، ولا خديعة ، ولا غيلة ، والدين بين المسلمين النصيحة الخالصة يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

أية أمة ترى هذا ولا تهاجر فى طلبه وتفتخر بعمله ، وتتباهى بالوصول إليه ، ولكن قضى الله أن يسلط على الأمة شرارها ، فتصبح ولا تتواصى بحق ولا تعتصم بصبر ولا تتناصح فى خير ، بل نعيش أفذاذاً ونعمل (إن كنا نعمل) أفراداً كأن لم تجمعنا مع أحد صلة ولا تضمنا إليه وشيجة ، فضلاً عن المذاهب المتعددة التى انتشرت بين المسلمين وأخرجتهم عن كثير من مزايا الدين ، بل أوقفتهم على أبواب الكفر والزندقة والكذب على الله والزور والافتراء على أنبيائه وأوليائه ، وأصبح الحديث بالتظنى ، كل واحد يأتيك منه بما ينصر مذهبه ، ويؤيد طريقته حتى أصبحنا والحال كما قيل عن المسلمين : ولا وفاق بين العلم والعقل، وهذا الدين .

* * *

(سيدنا علىّ بن أبى طالب) (*)

هو علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى القرشى ابن عم رسول الله ﷺ ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهو أول خليفة أبواه هاشميان ، ولد رضى الله عنه فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ ، وبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين، فأقام بها رضى الله عنه نحواً من خمس سنين لم يصف له فيها يوم ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

بعث عليه الصلاة والسلام و« علىّ » رضى الله عنه دون البلوغ ، وكان معه فى منزله فاهتدى بهديه وسلك سبيله ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية ولم يعبد وثناً قط ، فهو أحد السابقين إلى الإسلام ، وأحد العلماء الربانيين ، والزهاد المذكورين ، والخطباء المعروفين ، وأحد من جمع القرآن الكريم وأكرم أهل العباء والمباهلة ، وأخ رسول الله ﷺ فى المؤاخات .

أخرج الترمذى عن ابن عمه قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء «علىّ» تدمع عيناه ، فقال : آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد ، فقال النبى ﷺ : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » .

شهد الغزوات كلها (إلا غزوة تبوك) ، فإنه استخلفه النبى ﷺ على المدينة ، فلما أسف رضى الله عنه قال له النبى ﷺ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى » ، كان له القدم الثابت فى جميع الغزوات ، فهو أول المبارزين يوم بدر ، وأول الثابتين يوم أحد وحنين ، أصابته فيه ستة عشر ضربة ، وأول الفاتحين يوم خيبر ، وأول السابقين يوم الفتح .

(*) انظر : أسد الغابة : ٤/ ٩١ ، الإصابة : ٢/ ٥٠١ ، تاريخ بغداد : ١/ ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ١٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢ ، شذرات الذهب : ١/ ٤٩ ، طبقات الفقهاء ٤١ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٥٤٦ ، طبقات القراء للذهبى : ١/ ٣٠ ، العبر : ١/ ٤٦ ، مروج الذهب : ٢/ ٣٥٨ ، النجوم الزاهرة : ١/ ١١٩ .

أنابه عنه ﷺ فى الإقامة بعد هجرته بمكة أياماً أدى فيها الأمانات والودائع ، وقام بالوصايا ، فلما خرج النبى ﷺ افتداه بنفسه ونام على فراشه والمشركون يظنون أنهم يحاصرون النبى ﷺ حتى أصبحوا ووجدوا علياً رضى الله عنه ، ثم أنابه أيضاً فى قراءة أوائل التوبة فى موسم الحج إيذاناً ببراءة رسوله من المشركين.

ماذا يقول القائل فى هذا الإمام ، وكل وصَّاف منسوب إلى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول ، وكفى بشهادته ﷺ بأنه باب مدينة العلم دليلاً على مكنون السر الذى فيه ، فهو أول فى العلوم ، أول فى الشجاعة ، أول فى السخاء ، أول فى الحلم والصفح ، أول فى الفصاحة ، أول فى الزهد ، أول فى العبادة ، أول فى التدبير والسياسة ، أشد الناس رأياً وأصحهم تدبيراً ، لولا تقاه لكان أدهى العرب .

كأنما أفرغ من كل قلب ، فهو محبوب إلى كل نفس ، ظهر من حجاب العظمة بمعاليه ، فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك ، وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة ، أهل الذمة تحبه ، والفلاسفة تعظمه ، وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها ، ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها ، كأنما هو فأل الخير وآية النصر والظفر .

ينقطع اللجاج مع هذا القضاء الحاتم الذى ألم بالإمام رضى الله عنه فى أيام خلافته ، فلم يستطع أن يأتى فيها بشىء مع هذا العرفان العظيم ، وأصبحت أيام خلافته قضاء (النجاة من تبعته السكوت عنه) .

لا بد للقارئ أن يستحضر فى ذهنه الحال الذى كان فيه المسلمون بعد قتل خليفتهم المظلوم ، ويشخص فى فكره حالة الحيرة التى أطلق لها الذهول العنان ، فجالت فى الضمائر بما يسعه الإمكان ، فوضى لا ملجأ ولا سند ، حيارى لا قوة ولا عضد ، وأمامهم فتنة كالحسكة شاكة من كل طرف ، والاضطراب قد ألم بمستقبلهم وماضيهم وحاضرهم .

قتل سيدنا عثمان كما علمت فبقى « الغافقى بن حرب » أميراً على المدينة خمسة أيام ، وعلىّ ممتنع عن البيعة ، وأتى الكوفيون الزبير ، والبصريون طلحة فامتنعا أيضاً ، وأهل الأمصار رأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام يوقع الخلف والفساد ، فبقوا وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وهرب مروان

وبنو أمية ولحقوا بالشام ومعهم قميص عثمان وأصابع زوجته ، فأثاروا الشعور وهيجوا الأفكار ، ونصبوه على منبر دمشق ، وقامت الناس تطلب القود ، وطار الخبر لمكة واتصل بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى عائدة ، ونادوا فى المدينة برجوع الأعراب إلى بلادهم فأبوا .

هكذا كانت الحال فى هذه الأمة التى فاضت ينابيع حيلتها حتى شملتها فجمعت شملها ، وكانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وأهل الأرض بمدنيتها .

ثم اجتمع كثير من المهاجرين والأنصار ، وأتوا علياً يبايعونه (فأبى) لأنه قدر المستقبل حق قدره ، وعلم أنه إنما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها ، فقال لهم : (التمسوا غيرى) ، أو قال : (أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ، ومن اخترتم رضيته فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، فناشدوه الله والدين وألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك (فأبى) ، فخوّفوه فى مراقبة الإسلام حتى غلبوه فى ذلك فقال: (قد أجبتكم) .

رأوا أن هذا الأمر لا يتم إلا بمبايعة الزبير وطلحة ، فذهب إليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه ، قال قوم : (كرهاً) ، وقال قوم : (اشترطا عليه إقامة الحدود) يريدون القود من قتل عثمان .

ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع كبير من أكابر الصحابة فى المدينة كسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبى سعيد الخدرى، وكعب بن عجرة ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان ابن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وفضالة بن عبيد وغيرهم .

رأى الإمام رضى الله عنه أن بيعته تمت بالأغلبية فقام وخطب الناس ودعاهم إلى الخير وحذرهم الشر ، وبدأ فى أعماله .

* *

(أعماله فى خلافته)

بدأ بتغيير عمّال الأمصار ، (ولم يسمع رأى القائلين باستبقائهم حتى يستقر

الأمر) ، وكيف لا يبدأ بهم وهم داعية الفرقة وسبب الشتات ، نجم من بينهم الاختلاف ، فبعث على « البصرة » عثمان بن حنيف الأنصارى بدل عبد الله بن عامر .

وعلى « الكوفة » عمارة بن شهاب بدل أبى موسى الأشعرى .

وعلى « اليمن » عبيد الله بن سعد .

وعلى « الشام » عثمان بن حنيف بدل معاوية بن أبى سفيان .

وعلى « مصر » قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد .

فأما صاحبا « البصرة واليمن » فلم يردهما عنهما أحد ، فأقاما .

وافترقت مصر على صاحبها ، ففرقة دخلت فى الجماعة ، وفرقة اعتزلت وقالت : لا نكون مع « على » إلا إن قتل قتلة عثمان ، وفرقة قالت : نحن مع «على» إلا إن استقاد من إخواننا [1] .

ولاقى صاحب الكوفة وهو قريب منها طليحة بن خويلد الأسدى ، فقال له : ارجع ، فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً ، فرجع وقابل صاحب الشام عند تبوك خيلاً عليها رجال من الشام فردوه ، وامتنع سيدنا معاوية عن مبايعة « على» لأنه ظن فيه هوادة [2] فى نصرة عثمان على قاتليه ، ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيماً فى القصاص من قتلة عثمان ، لأنه وليه والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ ﴾ [3] ، ولم ير فى الامتناع عن البيعة خروجاً على الإمام لعدم انعقاد البيعة ، لتخلف كثير من أكابر الصحابة عنها ، ولم تكن بإجماع أهل الحل والعقد ، فأرسل رجلاً بطومار ليس فيه شىء من الكتابة وعنوانه : « من معاوية ، إلى علىّ بن أبى طالب » ، وأمره إذا قدم المدينة أن يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف ، ففعل الرجل ما أمر به حتى رفعه إلى علىّ رضى الله عنه ففضه ، فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول : ما وراءك ؟ فقال:

(١) انظر لهذا الخلاف فى الأفكار فرقة ترى لزوم القود من المصريين الذين اشتركوا فى قتله ، وفرقة ترى العفو .

(٢) الهوادة : اللين ، أو ما يرجى به الصلاح .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٣٣ .

آمن أنا ؟ قال : نعم ، قال : تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود ، قال : وممن ؟ قال: منك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوباً على منبر دمشق ، فقال : اللَّهُمَّ إنى أبرأ إليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله .

أصبحت الأمة مضطربة مختلفة المقاصد (ووجهتها كلها الحق وهو ضالتها): معاوية يرى أن البيعة لم تنعقد والإمام يرى انعقادها ، وطلحة والزبير يرفضانها لأنهما اشترطا إقامة الحد على قتلة عثمان ، والإمام يقول : لا قدرة لى على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتنظر الأمور وتؤخذ الحقوق ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها منادية فى الناس بدم عثمان لأنها متحققة بأنه قتل مظلوماً فى البلد الذى يأمن فيه الطير فى الشهر الحرام .

خطبت أم المؤمنين فى الناس وانتصرت لسيدنا عثمان ، وطلبت القود له من الغوغاء والعبيد الذين اجتمعوا عليه ، وتبعها كثير لأن معظم الناس ذهبت عقولها ولم يبق من خصال العرب الكريمة إلا أشدها (ثوران فى العقول لأخذ الثأر) ، وأكثر الصحابة يرون أن أول واجب على المسلمين فى هذا الوقت تتبع القتلة ، والقصاص منهم إقامة لحد الله الذى لا يصح تأخيره مهما نتج منه جعلوا إقامة هذا فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصله إليه ، ولذلك لم ير الزبير ولا طلحة فى هذا خروجاً على الإمام ، لأن البيعة لم تنعقد له .

الوقت الذى يؤول فيه أمر الانتقاض على الخليفة إلى قتله ويتناسى الناس فيه ذلك الحال القديم من احترامه ، وتكون فيه الأفكار مرتعاً لخطرات الخروج من كل طرف لا يبعد أن يكون من مصائب الإمام « علىّ » فيه رميه بأنه منحرف عن الحق فى حق قتلة عثمان .

استقام رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين على قصد البصرة فقصدوها ، فلما قاربوها راسلها أميرها فأعلمته أنها جاءت لتخبر الناس بمقتل عثمان ، وأن الغوغاء استحلوا الدم الحرام وسفكوه وقتلوا إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، وأظهر الزبير وطلحة أنهما بايعا (كرهاً) ، فصمم صاحب البصرة أولاً على منعها ، ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالئ طلحة والزبير ، فدس لأهلها واحداً من الناس فظهر له أن فيها أنصار لهذا الأمر ، فخرج بمن معه حتى نزل

ميسرة المربد ، وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس ، فتبعها جمع من أصحاب عثمان ، وخرج لها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة وقاتلهم حتى إذا ذاقوا حر السلاح تنادوا إلى الصلح حتى يرسلوا إلى المدينة ليعلموا أكانت بيعة طلحة والزبير طوعاً أو كرهاً ، فإن ثبت أنهما أكرها ترك ابن حنيف البصرة ، فذهب كعب بن سور قاضى البصرة رسولاً من عند أهلها ، فلما قدم المدينة قال: يا أهل المدينة ، أنا رسول أهل البصرة إليكم أسألكم ، أأكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين ؟ فقال أسامة بن زيد بأنهما أكرها ، فلقى أسامة بن زيد من والى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف إهانة ، وبلغ هذا الخبر علياً فأرسل إلى عثمان بن حنيف يقول : والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فإن كانا يريدان الخلع لا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا ، فلما زاع خبر إكراه الزبير وطلحة طلبا من ابن حنيف أن يخرج من البصرة ، فامتنع محتجاً بكتاب من « على » ، فاستولوا فى ليلة على الكوفة وحبسوا ابن حنيف ، فبلغ ذلك حكيماً ، فأقبل وقاتل حتى قتل كثير ، ثم أقامت أم المؤمنين ومن معها بالبصرة .

كل هذا والإمام بالمدينة يعبئ فى جيشه إلى الشام ، فلما بلغه الخبر دعى وجوه أهل المدينة لأنه يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة ، فخف قوم وتثاقل قوم وظهر آخرون برأى مثل أبى موسى الأشعرى ، وقد سألوه الخروج والقتال مع « علىّ » ، فقال : (إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا) .

أصبحت هذه الفتنة صماء لا يعلم فيها ، إن كان النائم خيراً من اليقظان أم القائم خيراً من القاعد ، فكم من رجل أغمد السيف وآخر نصل السهم وكثر الجدال ، فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه حتى قام القعقاع بن عمرو وقال : (أيها الناس ، لا بد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم ، وهو يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة الفقيه فى الدين ، فمن نهض إليه فإنا سائرون معه) ، ثم قال الحسن ابن علىّ رضى الله عنه : (أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير

فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً ، وأنى أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر ، فإن وجدنى مظلوماً أعاننى ، وإن وجدنى ظالماً أخذ منى ، والله إن طلحة والزبير أول من بايعنى ، وأول من غدر ، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر) ، فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج ، فنفر معه قريب من تسعة آلاف ، ثلثهم فى نهر الفرات والباقون ركباً ، فالتقوا بأمير المؤمنين فرحب بهم وأثنى عليهم ، ثم ندب القعقاع ابن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير ، فقدم القعقاع البصرة ، وبدأ بأم المؤمنين فقال : أى أمه ما أقدمك هذه البلدة ، قالت : أى بنى الإصلاح بين الناس ، قال : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما ، فبعثت إليهما فحضرا فقال القعقاع : إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها ؟ فقالت : الإصلاح ، فهل أنتما متابعان ؟ قالا : نعم ، قال : فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح ؟ قالا : قتلة عثمان ، فإن هذا الأمر إن ترك كان تركاً للقرآن ، قال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة رجل ، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وطلبتم حرقوص ابن زهير ، فمنعه ستة آلاف ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم ، فالذى حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وهذا أمر دواؤه التسكين ، فإن سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أبيتم فعلامة شر ، قالوا: أصبت وأحسنت ، فإن رجع « علىّ » وهو على مثل رأيك صلح الأمر ، فرجع إلى علىّ وأخبره الخبر وأشرف القوم على الصلح وأقبلت الوفود من كل جهة ، وأصبح الكل متفقين على الصلح .

سمع بذلك السبئية (أصحاب ابن سبأ) ، وتحققوا أن الصلح إنما يعود عليهم بالوبال ، لأنه إن تم كان على قتلهم ، لأنهم هم الذين أثاروا أمر عثمان فباتوا شر ليلة ، وقد أشرفوا على الهلكة ، باتوا يتشاورون فلم يجدوا غير انتشاب الحرب ، ثم أصبح الناس والتقى الجيشان خارج البصرة ، وخرج الزبير على فرسه بين الجيشين ، فخرج إليه علىّ حتى اختلفت أعناق دوابهما ، فقال علىّ

للزبير : لعمرى لقد أعددتما سلاحاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ، فاتقيا الله ، (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما ، فهل من حدث أحل ذلك ، فقال طلحة : ألبت على عثمان ، فلعن عليّ قتلة عثمان ، ثم ذكر الزبير بأشياء منها أنه قال له : (أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ فى بنى غنم ، فنظر إلىّ فضحك وضحكت إليه ، فقلت له : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ، فقال لك رسول الله ﷺ : « ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم ») ، فرجع الزبير وهو حالف أن لا يقاتل علياً ، وشعر أنه أخطأ فى اجتهاده ، وأصبح الرجوع للحق أولى لأنه يعمل لله ، ثم رجع الناس والجميع لا يشكون فى الصلح وباتوا بأهنأ ليلة وبات الدخلاء بأسوأ حال .

فلما كان الغلس قاموا من غير أن يشعر بهم أحد ، وقصد مضرهم مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة ، ويمنهم يمن البصرة واعملوا السلاح ، وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم ودسوا لكل طرف من يعلن الخبر ، فسأل طلحة والزبير عن الخبر ، فقيل لهما : طرقنا أهل الكوفة ليلاً ، فقالا : قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ، وسأل عليّ فقيل له : ما شعرنا إلا وقوم منهم يعملون فينا السلاح ، فقال : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء، ونادى فى الناس أن كفوا وأخرجوا أم المؤمنين فى هودجها لعل الله يصلح بها فرموها بالنبل وهى تنادى : (اذكروا الله والحساب) ، ولا يأبون إلا إقداماً ، واشتدت حمية أهل البصرة لحرم رسول الله ﷺ ، ولم يكن محيص عن القتال فاقتتلوا ، وترك ابن الزبير القوم ورجع فتبعه من يعرف بابن جرموز ، وقتله وهو يصلى بوادى السباع .

أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة والنجدة ، فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم ، واشتد أهل الكوفة على الجمل لأنهم رأوا أن البصريين لا ينهزمون ما دام واقفاً فرامه كثير ، وكل من رامه قتل ، فعقروا الجمل وتفرقوا عنه ، ثم حملوا هودجها وهو مثل القنفذ من كثرة السهام، وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الذى لم يكن فيه لأحد مأرب ، ثم دفنت القتلى وأطاف عليهم « عليّ » ، فلما أتى على طلحة قال :

لهفى عليك أبا محمد ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، واللهِ لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى وأنت كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

سيرت أم المؤمنين إلى مكة ، ورجع علىّ إلى الكوفة التى اتخذها مقر خلافته وأرسل يدعو معاوية للدخول فيما دخل فيه الناس ، فامتنع حتى تقتل قتلة عثمان، ويختار المسلمون لأنفسهم إماماً .

سار الإمام لمحاربة أهل الشام ، وسار إليه معاوية والتقى الجيشان فى سهل صفين ، ومشت السفراء بين الطرفين ، فكان فى سفراء الإمام من يجهل باب الإصلاح والفساد ، فاحتد فى الكلام حتى اشتد معاوية فى الخصام وقال : ما بيننا إلا السيف .

تناوشا وقتاً حتى دخل شهر المحرم لسنة (٣٧) ، فعقد علىّ ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعاً فى الصلح ، واختلفت بينهما الرسل وانتهت المخابرات على إصرار علىّ على مبايعته ، ثم النظر فى أمر قتلة عثمان ، وأصر معاوية على أخذ القود من قتلة عثمان أولاً ، ثم النظر فى البيعة .

نبذ كل طرف عهد هدنته وابتدأ القتال أول يوم من صفر طول النهار ، وهكذا الأيام التالية ، فلما كان مساء الثلاثاء لثامن صفر ، أجمع علىّ على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله ، فلما أصبحوا التقى الجيشان وانصرفا ، وكل غير غالب ، ثم دارت رحى الحرب بشدة يوم الخميس عاشر صفر ، ودخل الليل ولم يصد الناس عن القتال إقباله فاستمروا ، فلما أصبحوا كان الملل والسآمة فى جيش الشام أبين، ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص ، فقال عمرو : ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكماً بيننا وبينهم ، فرفعوا المصاحف على الرماح ونادى مناد يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق ، فلما رآها أصحاب علىّ اختلفوا ، ثم اتفقوا على إرسال رسول يسأل عما أريد من رفع المصاحف ، فقالوا : الرجوع إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون رجلاً ترضونه ونبعث رجلاً نرضاه يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه، ورضيت الناس بهذا وقبلت، واختار أهل الشام عمرو بن العاص ،

واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكتبوا بذلك عهداً ، وأن يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو بأذرح فى رمضان .

انصرف الناس من هذا المكان المشؤوم الذى اجتمعت فيه فئتان عظيمتان من المسلمين يقاتل بعضهم بعضاً ، ولكن الذى يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما ، لأن الجميع لم يقصدوا فى محاربتهم غرضاً دنيوياً لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم ، وينزع إليه ملحد ، وإنما اختلف اجتهادهم فى الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق ، فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً بقصد الباطل إنما قصد الحق ، وربما أخطأ ، والكل كانوا فى مقاصدهم على حق .

رجع الإمام إلى الكوفة ووقع الشقاق فى جيشه ، فريق راض بالتحكيم ، وفريق كاره له ، وهؤلاء اعتزلوا الإمام ونزلوا حروراء وبايعوا شيث بن ربعى على القتال ، وأن يكون الأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عَزَّ وجَلَّ ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم جاءهم الإمام ونصحهم فثابوا إلى رأيه ودخلوا مصرهم .

انقضى الأجل وحل رمضان ، واجتمع الحكمان من السنة السابعة والثلاثين ، وخلع كل منهما صاحبه ، وأثبت عمرو معاوية وكتبا شيئاً رأى الإمام أن كل واحد أتبع فيه هواه وافترقا ، ولم يفيا بما تعهدا به ، فصمم على حرب معاوية مرة ثانية، ولحق عمرو بالشام وبايعه مع أهلها .

أصبح الحال وجيش أمير المؤمنين موطن فتنة كلما أطفئت واحدة قامت أخرى، فمن خوارج عليه ، ومن غلاة فيه ، ومن محاربين معه ، ومن مقاتلين لأجله والسلطة تسير إلى الوراء ، وأصبح المقاتلون معه محرضين بالفصاحة والبلاغة لا بالطاعة والامتثال ، كأنما حربهم معه مجاملة ، ومعاوية بالشام مستقيم له الأمر وجنده أحسن جند فى طاعة الأمراء .

بعث عمرو بن العاص إلى مصر وفيها قيس بن سعد بن عبادة ، فبايعه أهلها وهو أخبر بطرق استجلابهم ، واعتزلت طائفة منهم وعليهم يزيد بن الحارث الدلجى بخربتا ، ووقع الخلاف بين الإمام وبين قيس فى شأنهم ، فعزله وولاها محمد بن أبى بكر ، وعلم أمير المؤمنين أن معاوية بن خديج دخل مصر مطالباً

بدم عثمان ، ورأى أن محمداً لا تمكنه المقاومة ، فولى على مصر الأشتر بن الحارث النخعي ، وكتب إليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة ، ولكن قدر الله بموته فى الطريق وبقى فى مصر محمد بن أبى بكر حتى دخلها معاوية بن خديج وقتلوه وحرقوه فى جوف حمار ، وبقتل محمد بن أبى بكر صارت مصر فى طاعة معاوية وبايع له أهلها ، وبعد أن تم له ذلك سير إلى البصرة عبد الله بن الحضرمى ، وسير السرايا إلى بلاد أمير المؤمنين حتى دخلت الحجاز واليمن فى طاعة معاوية ، وأصبح الإمام فى وسط من الخلق مضطرم بالخلاف والشقاق فريق شيعته ، وآخرون خوارج (لا علياً ولا معاوية) ، وفريق منافق يظهر الطاعة ، ويخفى العداء ، وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف ، وتغيرت الناس حتى سأل رجل علياً رضى الله عنه : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر ؟ قال : لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى ، وأنا اليوم وال على مثلك .

ومل أمير المؤمنين الإمارة وسئمها وكأنه استشعر راحته من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى بضمه إلى إخوانه من الشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً فصرح بذلك فى كثير من خطبه ومواعظه الأخيرة .

اجتمع ثلاث من الخوارج وتذاكروا ما حل بإخوانهم من الخوارج ، وكرهوا المقام بعدهم ، فاتفقوا على أن يذهب أحدهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى الكوفة ليقتل علياً ، ويذهب الثانى وهو البرك بن عبد الله التميمى إلى الشام فيقتل معاوية ويذهب ثالثهم ، وهو عمر بن بكر التميمى إلى مصر ، فيقتل عمرو ابن العاص ، واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا وهى صبح ليلة الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان ، فأما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره فى صلاة الصبح، فضربه بالسيف ، فوقع فى التيه ولم يمته ، فأمر به معاوية فقتل ، وأما عمر بن بكر ، فذهب إلى عمرو بن العاص ، فلم يخرج إلى الصلاة لعذر أصابه واستناب خارجة بن حبيب السهمى ، فضربه الخارجى فقتله ظناً منه أنه عمرو ، فخاب ظنه وقبض عليه فقتل وضرب به المثل : « أراد عمراً وأراد الله خارجة » .

وقصد عبد الرحمن بن ملجم أشقى البرية الكوفة ، وانتظر علياً ، فبينما أمير

المؤمنين ينادى : الصلاة الصلاة الصلاة ، إذ ضربه بسيفه قائلاً : (الحكم لله لا لك يا علىّ ولا لأصحابك) ، فقال علىّ : (لا يفوتنكم الرجل) ، فشد عليه الناس وأخذوه ، ثم قال علىّ : (النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه ، كما قتلنى ضربة بضربة ولا تمثّلوا به ، وإن بقيت رأيت فيه رأيى) ، ثم دخل جندب فقال : إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ، فقال : ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ، ثم دعا الحسن والحسين ، فقال لهما : (أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا ، وإن بغتكما ولا تبكيا على شىء أزوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضائع ، واصنعا للأخرى ، وكونا للظالم خصيماً وللمظلوم ناصراً ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم) ، ثم نظر إلى محمد الأكبر ابن الحنفية ، فقال له : (هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم ، قال: فإنى أوصيك بمثله) ، ثم لم يزل يذكر الله حتى مات فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر ، وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص.

ليتأمل القارئ مقدار تبدل الأحوال واختلاف العقائد وتشتت الأهواء بالفتن ، قتل سيدنا عمر رضى الله عنه سراً ، وتولى بعده سيدنا عثمان ، فازداد الطيش حتى قتل رضى الله عنه جهراً وتولى الإمام ، فكان بين لجاج وعناد حتى جهزت لحربه الجيوش ، وهكذا كل أمر يصعد منزلة منزلة حتى يبلغ الغاية ، ولا سبب لذلك إلا مفارقة أدب الدين ، وقد مكث رضى الله عنه فى الإمارة ما شاء الله أن يمكث ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر سخطه لمن عصى ورضاءه لمن أطاع، فأذاق الأمة كأس الضر فى نكث بيعة خليفة رسوله ﷺ وقتله ظلماً ، أو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمثل للمسلمين عياناً مزايا الوحدة والمحبة والائتلاف، وضرر التعدد والعداوة والشقاق ، فأوقع بأسهم بينهم حتى يتوبوا ولا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق العصا بينهم وبين أئمتهم ، وليعلم جماعة المسلمين فى كل آن أن نصر الله بعيد عنهم كلما فشلوا وتنازعوا وصرفوا التعلق عما كانت عليه الناس فى عهد السلف الصالح .

لو أصلحت دعوة من النفوس فاسدها وداوت مرضها ، لكان لدعوته رضى الله عنه فى صلاح حال المسلمين جميل الأثر ، ولو ساعد الدهر لارتقت الأمة العربية فى عصره حتى شقت الفلك بارتقائها ونافست بواسطته الأمم فى كل شىء

وناهيك بمن جمعت بعض حكمه ، ففاقت بها الأسفار ، وتليت بعض معجزات بلاغته ، فزلزلت على لينها ما استحجر من الأرواح ، أى وجدان لطيف هو يخاطب الناس بما يقيمهم ويعينهم وينعشهم ويرقى بهم بسلم البرهان إلى الكمال ، تنغلق الأفكار دون الإتيان بمثل عهده رضى الله عنه للأشتر النخعى الذى ملأه بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة ، وطالب الناس بالطاعة عليه وحملهم باتباع ما فيه ، هو أول قانون لسير العمال فى الأمة الإسلامية جلى فيه رضى الله عنه عن الغاية بما لم تصل مدارك الكثير إلى مرماه ، ولما كان هو من أحسن ما تتعلق به النفوس وتتشوق لرؤياه العيون بعد سيرته رضى الله عنه أتينا به خاتمين سيرته الشريفة بخير أعماله ، وليشهد الناس هذه الحكم التى تفيض من الأفئدة والفصاحة التى تتدفق عن الألسنة ، والله على كل شىء قدير :

لولا عجـــائب صـــنع الله ما نبتت ... هذى الفضائل فى لحم وفى عصب

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أمر به عبد الله علىّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

آمره بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسُنَّنه التى لا يسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه .

وآمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ويزعها [1] عن الجمحات ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله .

ثم اعلم يا مالك إنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وإن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك : ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك وشح [2] بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت ، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، وليؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك وقد استكفاك [3] أمرهم وابتلاك بهم .

---

(١) يكفها عن مطامعها .

(٢) شح بنفسك : أى ابخل بها عن الوقوع فى غير الحل .

(٣) طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم .

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدى [١] لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن : إنى مؤمراً آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال [٢] فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير .

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك[٣] ، ويكف عنك من غربك ويفىء إليك بما عزب عنك من عقلك .

إياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب ، وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية ، فإن سخط العامة يجحف [٤] برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، واسأل بالإلحاف [٥] ، وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة وإنما عماد الدين وجماع المسلمين [٦] والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم .

---

(١) لا يدى لك بنقمته : أى ليس لك أن تدفع نقمته ، أى لا طاقة لك بها يقال ليس لى بأمر كذا يدان أى طاقة .

(٢) الإدغال : إدخال الفساد . (٣) الطماح : النشوز .

(٤) يجحف : أى يذهب برضى الخاصة ، فلا ينفع الثانى معه ، أما لو سخط الخاصة ورضى العامة فلا أثر لسخط الخاصة فهو مفتقر .

(٥) الإلحاف : الإلحاح والشدة فى السؤال .

(٦) جماع الشىء (بالكسر جمعه) : أى جماعة الإسلام .

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس ، فإن فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك .

اطلق عن الناس عقدة كل حقد ، وأقطع عنك سبب كل وتر [١] ، وتغاب عن كل ما لا يصح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاش ، وإن تشبه بالناصحين ولا تدخلن فى مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك من الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ومن شركهم فى الآثام ، فلا يكونن لك بطانة [٢] ، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لا يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقل لغيرك إلفاً فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من هواك حيث وقع .

وألصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك [٣] بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه .

---

(١) الوتر بالكسر : العداوة ، والأوتار : العداوات .

(٢) بطانة الرجل بالكسر : خاصته .

(٣) يطروك : أى يزيدوا فى مدحك ، ولا يبجحوك : أى يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك لم تكن فعلته .

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم [1] ، فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً ، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقض سُنَّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثن سُنَّة تضر بشيء من ماضى تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت بها .

وأكثر مدارسة العلماء ومنافسة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسالمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكلا قد سمى الله سهمه ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سُنَّة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً .

فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم إلا بهم ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم ، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد [2] ، ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم ، وفى الله لكل سعة ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه ،

(١) قبلهم بالكسر أى عندهم .

(٢) وفى نسخة : المعاهد .

وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل .

فولّ جندك أنصحهم فى نفسك لله ورسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء ، وينبو عن الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف .

ثم ألصق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة السوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن (١) فى نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفاً تعهدتهم به ، وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل (٢) عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هماً واحداً فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودة الرعية ، وأنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدرهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح فى آمالهم ، وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله ، ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم أكثر من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً .

وأردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

---

(١) تفاقم الأمر عظم . (٢) أفضل عليه وتفضل بمعنى .

الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [١] ، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر [٢] من الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف [٣] نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على كشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا .

ثم انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام المتقدمة ، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع إشرافاً ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم اسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو سلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة [٤] لهم على استعمالهم الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .
(٢) حصر كفرح ضاق صدره أى لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق .
(٣) الإشراف على الشيء : الإطلاع عليه من فوق .
(٤) حدوة ، أى : قدوة يبارونها .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن [١] عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فإنه يذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك [٢] لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه لطيبة أنفسهم به ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتى خراب الأرض من أعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لأشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثم انظر فى حال كتابك ، فول على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة ، فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ، ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان فى العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإن ذلك دليل على

---

(١) ثقل المضروب أو نزول آفة ، أو انقطاع بالة ، أى : ما يبل الأرض كالمطر ، أو تحويل البذر إلى فساد بالتعفن لما اغتمرها الغرق .

(٢) إجمامك ، أي : إراحتك لهم .

نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته .

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات ، وأوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فإنهم سلم لا تخاف بائقته [(١)] ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفى حواشى بلادك ، واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله ﷺ منع منه وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكره بعد نهيك إياه ، فنكل به وعاقب فى غير إسراف .

ثم الله ، الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى [(٢)] ، فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً ، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافى [(٣)] الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطرفانك ، لا تعذر بتضييعك التافه [(٤)] لأحكامك بالنظر فى الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم ، ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه ، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكل فاعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه ، وتعهد أهل اليتم ، وذوى

---

(١) البائقة : الداهية .

(٢) الزمنى - بفتح أوله - : جمع زمين : وهو المصاب بالزمانة . بفتح الزاى : أى العاهة ، يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب .

(٣) جمع صافية : وهى أرض الغنيمة . (٤) التافه : القليل .

الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قسماً ، تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً ، فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول فى غير موطن : « لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع » ، ثم احتمل الخرق منهم والعى ، ونح عنهم الضيق والأنفة، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئاً ، وامنع فى إجمال وأعذار .

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها منها ، إجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك ، وامض لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية .

وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص ، بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً ، فإن فى الناس من به العلة وله الحاجة ، وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم ، فقال : « صل كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيماً » (١) .

وأما بعد . . فلا تطيلن احتجابك عن رعيتك ، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

الأمور ، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخت نفسك فى البذل فى الحق ، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه ، أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا آيسوا من بذلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة ، أو طلب إنصاف فى معاملة .

ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك [١] قطيعة ، ولا يطمعن منك فى اعتقاد [٢] عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهنأ [٣] ذلك لهم دونك ، وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة ، وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة وإن ظنت الرعية بك حيفاً فاصحر [٤] لهم عذرك ، واعدل عنك ظنونهم بأصحارك ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى ، فإن فى الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك وأمنا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن ، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفا ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً

---

(١) الحامة : كالطامة الخاصة والقرابة .
(٢) الاعتقاد : الامتلاك .
(٣) مهنأة : منفعته .
(٤) صحر كفرح : أظهر وأبان .

أفضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره ، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجوا انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته ، وأن تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ وافرط عليك سوطك ، أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها والتسقط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه ، وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم .

---

(١) سورة الصف ، الآية : ٣ .

أملك حمية أنفك ، وسورة حدك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك ، فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك .

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سُنَّة فاضلة أو أثر عن نبينا ﷺ أو فريضة فى كتاب الله ، فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها .

وإنا نسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه ، مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة إنا إليه راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً والسلام .

* * *

(فصل فى خلافة سيدنا الحسن) (*)

لا بد لنا من كلمة على خلافة سيدنا الحسن يتصل بها الكلام ويعلم منها كيف استقام الأمر لسيدنا معاوية ، فقد تركنا أغلب الناس فوضى بعد قتل الإمام فى العقل والشريعة معاً .

كان أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت ثم بينما هو يتجهز للمسير قتل فبايع الناس ، وهذا الجيش ولده الحسن وبلغه أن معاوية سائر إليه فى أهل الشام ، فتجهز هو أيضاً بهذا الجيش الموثق بالإيمان والعهود إلى لقاء معاوية ، فلما نزل الحسن المدائن حدث فى جيشه من الشقاق والنفاق ما دعاه لتأخير ما عزم عليه ، رأى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو واقع بينهم دائماً من النزاع والتطلع إلى ما ليس لهم (حتى نازعوا الحسن فى بساط كان يجلس عليه) .

رأى أن بيعته كبيعة أبيه ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق، فراسل معاوية بن أبى سفيان يبذل له الصلح واشترط عليه شروطاً وقال له : إن أنت أعطيتنى هذا فأنا سميع مطيع ، وكان معاوية قبل وصول كتاب الحسن إليه ختم صحيفة فى أسفلها ، وكتب للحسن يقول له : اشترط فى هذه الصحيفة ما شئت فاشترط ، وأهم شروطه : تأمين جيشه وشيعة علىّ كلهم ، فقبلها معاوية ، وقدم العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده ، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله عن الحسن : (إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين) .

تم دور الخلافة بالخلفاء الراشدين بتسليم سيدنا الحسن الأمر ، وانتهى دور

(*) انظر : تهذيب التهذيب : ٢/ ٢٩٥ ، الإصابة : ١/ ٣٢٨ ، تاريخ اليعقوبى : ٢/ ١٩١ ، تهذيب ابن عساكر : ٤/ ١٩٩ ، ذكر أخبار أصبهان : ١/ ٤٤١ - ٤٤٧ ، مقاتل الطالبين ٣١ ، حلية الأولياء : ٢/ ٣٥ ، الكامل : ٣/ ١٨٢ .

الفتن والشقاق الذى ابتدأ من قيام الثوار على سيدنا عثمان بن عفان ونهايته قتل الإمام علىّ رضى الله عنهما .

فتن دامت عشر سنين لو كانت فى أمة أخرى لهدمتها وقوضتها ، ولكن الله نظر إلى دينه القويم بعين عنايته ، فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، ثم انقسم المسلمون على أنفسهم وأصبحوا فرقاً ، فمنهم الشيعة ومنهم الغلاة والروافض والخوارج ، وغيرهم من أهل الملل والنحل ، يقفون فى وجه كل إصلاح ويشقون عصا كل طاعة لحد الآن كما سيأتى تفصيله .

ألا مخبر يخبرنى لو لم يقدر الله هذه الفتن إلى أى ركن من أركان الدنيا كان يصل الإسلام ، وإلى أى درجة كانت ترفع كلمته ، وإلى أى عدد كانت تنتهى شيعته وإلى أى شرف كانت تصل رفعته . . . أظنه كان يستأمن بقوته أعظم قوى الكون ويصبح كل شىء دونه منحطاً ومتضائلاً خاضعاً ومستكيناً إليه .

لو نظر الناظر لما وجد لهذا الشقاق الذى حصل إلا تطاول الأيدى لقتل سيدنا عثمان ، ونقض بيعة له فى أعناقهم مع أن الخروج عن طاعة الإمام لم يجعل النبى ﷺ له سبباً إلا الكفر البواح الظاهر الصريح الذى لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم ، وكأن مصيبته هذه لم تكف حتى أعقبها الله بافتراق الأمة فى داخليتها ، فكان لكل جماعة رأى وليس هذا بالأمر الهين ، وكيف يكون هيناً وقد أدى للقتال والخروج على الإمام ، وعمل السيف فى رقاب المسلمين ما عمل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم دالت الدولة لبنى أمية وتوالت فتوحاتها براً وبحراً ، وانتظم الشمل بعد شتاته ، وجبر الوهن بعد ثلمه واشرأبت أعناق أرباب الدولة إلى إعزاز جانبهم وإذلال مجانبهم ، وإظهار دينهم ، وقد نما فيهم إحساس المحاماة عن الحوزة ، فاتجهت جيوش الدولة وأساطيلها إلى الفتح ، فلم تمض الأيام ولم تنصرم الليالى حتى فتحت الجزر فى البحر الأبيض المتوسط والمدن والحصون فى قارة آسيا ، وأصبح كنف الأمة مكيناً يكلؤ الوادعين فيه ، ثم ما زال أرباب الدولة قائمين

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

بتشريفها بالرأى السديد والعزم الشديد حتى أخذت الجزية من ملك القسطنطينية بعد الحصر والتضييق والعذاب الأليم ، واستدامت لها الهداية إلى أن أنسى الله سبحانه وتعالى بعض القوم أدب الدين وحدود المحافظة على المواثيق والعهود ، ونشزت طوائف منهم زائغة عن السداد ومتنكبة عن الصواب والرشاد ، فأدت حالتهم إلى اضمحلال بعض الأطراف من ملكهم ، فخرجت عليهم منها غارات وفتن كانت مقدمة لانتقال الدولة من بنى أمية إلى بنى عباس كما سيرد عليك ببعض التفصيل بعد هذا ، فتدرك منه ما يؤدى إلى الزيادة والبركة وما يورث الفشل والاختلال ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) .

إن الصدور لا تزال تكمن ما فيها ، ولذلك فإن شيعة علىّ رضى الله تعالى عنه لا تزال ترى هذا الأمر فى أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة ، وقد صارت لهم مذاهب ونحل يعجز القلم عن استقصائها والخوارج لا تزال ترى التحكيم ضلالة ، ولا ترى البيعة إلا شورى ولا تنتخب إلا رجلاً على مذهبهم ومعتقدهم ، وتفرقوا شيعاً كل له مذهب يتبعه (ولو بغير إمام) ، وجماعة منهم يقولون : إن معاوية هو الذى أحال الخلافة ملكاً (وأنى لمعاوية ذلك) ، وإنما الذى أحالها ملكاً هى العوامل الطبيعية التى إذا عرضت للأمة تضطرها لطلب الانفراد بالمجد والاستئثار به ، وقد وقع هذا بالفعل لبنى أمية ولم يكن لمعاوية أن يدفع تأثيره عن نفسه وقومه ، لأنه أمر طبيعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته الأمة فاستماتت دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة ، وخالفهم فى الانفراد بالأمر لوقع فى افتراق الكلمة ، ولم يكن للحسن رضى الله عنه ذلك ، بل كان القوم فى نهاية الشقاق ، يدل على ذلك أنه لما تراسل مع سيدنا معاوية فى أمر تسليم الخلافة خطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع ، وكنتم فى مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، إلا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره ، وأما الباقى فخاذل ، وأما الباقى فثائر ، إلا وأن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عَزَّ وجَلَّ بظبى السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه

---

(١) آل عمران ، الآية : ١٤٠ .

وأخذناه بالرضا ، فناداه الناس من كل صوب وناحية : « البقية البقية وامض الصلح » .

فأين هذه العصبية من عصبية بنى أمية ، ومثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى عمله حجة وفعله قدوة يخشاها ، كان إذا رأى القاسم بن محمد بن أبى بكر يقول : لو كان لى من الأمر شىء لوليته الخلافة ، ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة ، ومثل هذا هو الذى وقع للمأمون منذ عهده للرضا ، ومن هذا أيضاً الذى نراه فى أهالى الدول المتمدنة الذين يحرصون على تقاليدهم ، فهم فى عصبية تامة يخيفون بها الحكومة ويغرسون فى قلوب أربابها بذور التقية والحذر ، فلا يتأتى لحكوماتهم أن تجلب لبلادها من البضائع إلا ما ليس له وجود عندهم فضلاً عن أنها تستخدم الغير فى عملها ، على أن الملك إنما ذم منه الشارع التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات ، ولم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح ، وإذا كان الملك مخلصاً يحمل الناس على عبادة الله وجهاد عدوه ، لم يكن مذموماً ، والملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية ، وخلافة سيدنا معاوية لم تكن كذلك ، بل من رأى كثير من المؤرخين الذين لم يصح عندهم حديث « الخلافة بعدى » أن تلحق دولته بدولة الخلفاء الراشدين ، وأخباره بأخبارهم فهو تاليهم فى الدين والفضل والفتح العظيم براً وبحراً ومن بعده من خلفاء بنى مروان وبنى العباس الذين فتحوا الفتوحات ، وأعلوا كلمة الله فى الأرض ، وإن شق ذلك على جماعة فى هذه الأيام شغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل وتضليل وجلسوا مجلس الحكم فى هذه القضية من قبل أن يتحروا أوثق مصادرها والأيام تسوق لهم كل يوم حديثاً عن سياسة دنياهم ، وقد صرف الله قلوبهم عن النظر فيها ، وأولى بهم أن يتناصحوا فى خيرها وشرها ، ولا يتركوا الناس أفذاذاً لا يعلم أحدهم بما يكون من عمل أخيه .

اللّهُمَّ ألف كلمة المسلمين ولم شعثها ووفقها لما تحبه وترضاه بمنك وكرمك إنك على كل شىء قدير .

* * *

(سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه) (*)

هو الفاتح لأعظم ركن من أركان الخلافة الإسلامية ، البلد الذى هو واسطة عقدها أموية ، وعباسية ، وتركية ، البلد الذى لم يتمصر قبله مصر ، ولم يذكر قبل أهله حى ، البلد الذى كانت أعمال أهله ولا تزال :

ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

نقدمه على غيره لعلاقة السلطان ، الذى بينه وبين هذا البلد وأهله ، لأنه أول فاتح إسلامى تولى فتحه بسيفه وحكمه بعدله ، ولعلاقة الدين ، لأنه أول من شرح الله صدور أهله إليه على يده ، واطلع فى صدورهم نبراسه بواسطته ، وأول مسجد خشعت فيه الأصوات للرحمن وسجدت فيه الجباه للديان ، مسجده الذى أسس فى مصر منذ فتحها ووقف على إقامة قِبْلته (أى على تحريرها) ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ هو من أجلهم .

هو سيدنا عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد (بالتصغير) بن سهم ابن عمرو بن هصيص (بالضم) بن كعب بن لؤى القرشى السهمى .

اختلف الناس فى وقت إسلامه ، فقائل قبل الفتح ، وقائل بين الحديبية وخيبر وقائل بأرض الحبشة ، وعاش تسعين سنة ، وكان يذكر ليلة ولد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أدعج أبلج قصير القامة عليه مهابة الإمارة وسيماؤها ، أخرج ابن أبى خيثمة من طريق الليث ، قال : نظر عمر بن الخطاب إلى عمرو رضى الله عنهما يمشى فقال : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً .

وكان لسناً بادى الحجة يسد برأيه ثلمة السيف (وقد سدها) ويفل بالروية حده (وقد فله) قائل لم يقل بغير تفكير ولم يعمل بغير تدبير .

---

(١) انظر : التفاصيل فى كتاب عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم حسن .

قال إبراهيم بن مهاجر عن الشعبى عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين قرآناً ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سراً بعلانية منه .

بلغ مقدار لحنه بحجته ودهائه فى ما يريد وما يراد منه أن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان إذا رأى الرجل يتلجلج فى كلامه يقول : أشهد إن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد (يعنى خالق الأضداد) .

وذكر الزبير بن بكار أن قريشاً بعثت لعمرو تناظره بعد أن أسلم ، فقال لرسولها : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك نحن أهدى أم فارس والروم؟ قال : نحن أهدى ، قال : فنحن أوسع عيشاً أم هم ؟ قال : هم ، قال : فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا فى الدنيا وهم أعظم منا فيها إصراً فى كل شىء ، وقد وقع فى نفسى أن الذى يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته حق ، ولا خير فى التمادى على الباطل .

وكان شديد الحياء من رسول الله ﷺ لا يرفع طرفه إليه ، وكان للمعضلات حلالاً ، وكان النبى ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم ، وكان أميرهم ، وكانوا يصلون خلفه .

وبعث إليه النبى ﷺ فقال : « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى » ، فلما أتاه قال له : « إنى أريد أن أبعثك على جيشى فيسلمك الله ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة » ، فقال : يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال بل أسلمت رغبة فى الإسلام ، فقال : « يا عمرو ، نعم المال الصالح للمرء الصالح » .

وأثنى النبى ﷺ على ثباته ، إذ فزع أهل المدينة فزعاً فتفرقوا ، فنظر عمرو بن العاص إلى سالم مولى أبى حذيفة فى المسجد ، فإذا عليه سيف ففعل مثله فخطب النبى ﷺ فقال : « ألا يكون فزعكم إلى الله ورسوله ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان » .

ذاق لذة الحاضرة وعرف حال استيطان الريف وأدرك صعوبة جلافة البدو وماز

جفاء الأعراب ، فلما ضرب الإسلام بجرّانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدب لم يعجزه استكمال شيء دون استعماله مع أهله على الوجه الذى يحسن مسمعاً ويلطف من القلب موقعاً.

نظر إلى دولة الروم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور وسبر تركيبها بمسبار الحكمة مع شدة احتفائهم وقتها بسياسة الخفاء فى مجامع رجال دولتهم المعروفة عند جماعة المؤرخين (بسوسيتيه سكريت) فتبدى له من أمر الدولة الفراق فى فراقها ، وأدرك أن قد آن وقت استباحة هذه المدن وتخضيد شوكة هذه الدولة عن مصر .

فلما كانت سنة ثمان عشرة ، وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الجابية) ، قام إليه وخلا به وقال له فيما قال : ائذن لى أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل به من تعظيم أمرها وتنبيه خاطره الشريف إلى مزارعها ومنافعها ومحاصيل أرضها وبرها وخيرها وفيضان نيلها وحال أهلها ، حتى ركن لذلك وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل ، وقال له : سر وأنا مستخير الله فى مسيرك ، فسار وافتتحها (وفى كونها فتحت صلحاً أو عنوة خلاف) ، ولم يخنه الرأى فى شيء مما قال ولم تعرف له كذبة فيما روى كأنما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر ، وربى فيه .

كان نظره فى ذلك على الغيب (والبلاد فى عالم العماء والخفاء) أثقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة (والكرة الأرضية أبسط من كف) ، فكم قدروا قوة أخصامهم وأخطأوا وكم وطئوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا فى حروب انتهكتهم وظنوها فى أول أمرها لعباً ولهواً .

ثم وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصفاً يقصر عنه المخالط والعشير ، فمنه أنه قال له عنها : (بينما هى لجة بيضاء إذا هى زبرجدة خضراء نيلها عجب ، وترابها ذهب ، وأمراؤها جلب ، وهى لمن غلب) .

كيف يرى المصرى الآن ، هل قدر بعد ثلاثة عشر قرناً أن يفلتها من وصف عمرو بن العاص أم هى هى فهمها عمرو ليعلمها وعلمها ليحكم عليها ، وكيف

يرى الناظر مكان العظمة فى مقال هذا البدوى ومقدار العظة والاعتبار فيه مع أنه لم يتحكك بعلوم أصول الكلام ، ولم يتحنك بفلسفة الحكماء ولم يشهر علمه بشهادات التدريس ، ولم يمل عليه إلا نور بصيرته التى هى نتيجة حسن المنبت وطيب المغرس وصيغة الأدب الدينى الذى هو فردوس النفوس تنقد بواسطة الحقائق ويحكم عليها حكماً صحيحاً تؤيده الأيام ويحققه المستقبل .

وكان مع هذه الدنيا المقبلة والسعادة الخادمة والسلطنة القاهرة النافذة ، وقوله وهو على المنبر : (لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت) أسبق الناس لحق وأبعد الناس عن باطل ، فلم يعهد عليه أثناء ولايته عليها نقضه لعهد ولا خفره لذمة ولا هتكه لعرض ولا نظره لما فى يد الناس من الأموال والثمرات والعروض ، ولم يستأثر لنفسه خيراً دون من يعول ويرعى .

يستظهر على ذلك من تأنيه وتؤديه فى إرسال ما كان يحمل من مصر إلى المدينة من الطعام ، ونظره فى ذلك لطوق البلاد والعباد وكتاب أمير المؤمنين يلى الكتاب بطلب ذلك ، وهو يحتمل العتب منه ولا يحول عن سبيله ، وكما يؤخذ من جبايته لها أقل من جباية غيره ، وقول سيدنا عثمان رضى الله عنه له : (إن اللقاح بمصر قد درت ألبانها بعدك يا عمرو ، فقال له : لأنكم أعجفتم أولادها) .

ثم أزال عن أهل مصر كثيراً من البدع وأذاقهم حلاوة الدين ، وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ومن إزالتها من حسنة .

وحسبك من مناقبه الإسلامية الغراء رضاؤه بالحق عن نفسه وإذعانه له ، أخرج ابن عبد الحكم عن أنس قال : أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم ، قال : عذت بمعاذ ، قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ، ويقدم ابنه معه فقدما ، فقال عمر : أين المصرى ، خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد اشتفيت منه ، فقال عمر لعمرو : (بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

وناهيك بهذه المنقبة الإسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما ،

وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستقى منها جميع العالم معانى الحرية والمساواة والإخاء والعدل والإحسان .

أفلا يأسف المصرى على نفسه إذا قايس بين ترقيها فى ذلك العهد وبين انحطاطها الآن ، شتان بين نفس تسافر لوقتها من مصر إلى الحجاز لتشكو ضربة من سوط وبين أخرى ، ترى حقها من جميع الوجوه مضاعاً وهى مستأنسة بالظلامة لا تحس بالألم فضلا عن أن تهم بالشكاية منه .

أفلا ينبغى للمتبجح بفضل الأجانب أن يقصر بعد هذا الفضل وأمثاله من مكارم الأخلاق عن الإفراط فى الإطراء عليهم ، أفلا يوجب عليه العدل أن يشرك قومه معهم ويضعهم فى طبقتهم فيذكرهم إذا هو ذكر « الكونت ميرابوه »، أو «الچنرال دولافيت» ، أو « روبسبيير » ، أو « مارا » ، وغيرهم من الفرنساويين أو « كرومويل » ، أو « أوليفيه » الإنكليزيان ، أو « واشنطون » ، أو « فرنكلين» الأمريكانيان ، أو « جوردانولورونو » ، أو « جريبالدى » ، أو« كافور » التليانيين لأن سعى هؤلاء فى تحرير أنفسهم ومساواتهم ببعضهم لم يكن بأشرف من المعنى الذى قصده أمراء الإسلام ، ولكن هؤلاء نشأوا بين قوم عرفوا فضلهم فأذاعوه وسمعوه فوعوه وفضلنا ضيعته أصحابه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هذا بعض الشيء من سيرة هذا الفاتح وبقى شيء لا بد من ذكره والتنويه تذكرة لإخواننا القراء .

قال ابن حجر فى « الإصابة » : « إن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ ، .

(٣) سورة الفتح ، الآية : ١٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾(٣) ، وجميع ذلك مع الأحاديث الشهيرة الكثيرة يقتضى القطع بتعديلهم ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من الخلق على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التى كانوا عليها مع رسول الله ﷺ وبعده من الهجرة والجهاد ، ونصرة الإسلام ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة فى الدين ، وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم ، والاعتقاد بنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم .

ثم وجدت بين المسلمين طوائف من العجم والفرس ديدنهم التنكر لكل دولة ذاهبة ليحتلبوا خير كل دولة مقبلة ، أولئك أداهم هذا الضرب من النفاق إلى الكذب والبهتان فى حق خيار من سلف وخلقوا لهم صغائر وكبائر ، وهذا الفاتح الجليل ممن أصيب ببهتان كبير من هؤلاء ، وأدى فجور الكاذب عليه أن يخلق له أفعالاً ، ويختلق عليه أموراً ليمحى بسيئاته المكذوبة حسناته هذه ، وهيهات وقد أخذ الناس ببهرج هذا القول وزور الكلام المصطنع ، وأغفلوا هذه المكارم وما علموا أن موقع الرجل من الملة والأمة هو الموقع الذى تخطبه له هذه المحاسن وتوجبه له هذه المناقب ، لا ما ترميه به الأعداء ، ولم يدركوا أن الأمويين لم يشتموا إلا لإرضاء العباسيين، وأن الزارى بهم لم ينظر فى عمله إلى شيء من خدمة الحق أو إعلاء كلمة الدين ، وأن الكل ما بعد ذلك مقلدون .

* * *

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٤ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

(٣) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

(سيدنا معاوية رضى الله عنه) (*)

هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى .

كان أبوه أبو سفيان أحد شياخ مكة ، أسلم بعد الحديبية على ما حكاه الواقدى وقال غيره بل يومها وكتم إسلامه عن أبيه وأمه حتى أظهره يوم فتح مكة (وهو مثل الذى وقع للعباس رضى الله عنه إذ أسلم ببدر وكتم إسلامه إلى قبيل الفتح) .

قال أبو نعيم : « وكان من الكتبة الفصحاء وهو ممن كتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ ، فكان أمينه على وحى ربه جل وعلا » .

وكان من أكابر العرب نسباً وقرباً منه ﷺ حاز شرف الإسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف المصاهرة المستلزمة لمرافقته له ﷺ فى الجنة ، وشرف الحلم وشرف العلم ، وسؤدد الإمارة والخلافة ، وكفى بنسبه فخراً قول النبى ﷺ يوم الفتح : « من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » (1) ، ميزه بذلك ﷺ دون غيره زيادة فى إعلان شرفه ومجده .

روى عن أجلاء الصحابة كأبى بكر وعمر وأخته أم المؤمنين أم حبيبة ، وروى عنه أجلاؤهم وفقهاؤهم كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، فروى عن النبى ﷺ فيما روى مائة وثلاثة وستين حديثاً .

كان عاقلاً لبيباً عالماً حكيماً داهية فى السياسة والكياسة ، وهو الذى قال : «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » قالوا : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : « إذا جذبوها أرخيتها وإن أرخوها جذبتها » .

(*) انظر : الكامل : ٤/٢ ، تاريخ الخلفاء : ٢٠٤ ، تاريخ الطبرى : ٦/ ١٨٠ ، منهاج السنة : ٢٠١/٢٠ - ٢٢٦ ، تاريخ اليعقوبى : ١٩٢/٢ ، تاريخ الخميس : ٢٩١/٢ - ٢٩٦ ، البدء والتاريخ : ٥/٦ ، مروج الذهب : ٤٢/٢ ، خلاصة تذهيب الكمال : ٣٢٦ .

(1) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

حسن التدبير حكيماً فصيحاً بليغاً يحلم فى موضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة والحلم عنده أغلب ، كريماً باذلاً للمال يكرم الوفدين ، ويحسن القرى ويقضى الحوائج ، اختلفت الناس فى حبه ولم تختلف فى فضله .

مخايل فضل نشأت فيه وثبتت ونمت معه حتى صرن شمائل كمال وخلال خير وجلال ، أخرج أبو سعيد المداينى قال : نظر أبو سفيان إلى ولده معاوية وهو غلام ، فقال : إن ابنى هذا لعظيم الرأس ، وأنه لخليق أن يسود قومه ، فقالت أمه : (قومه فقط !! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة !!) .

قال ابن عباس رضى الله عنه وكان من النقاد : (ما رأيت للملك أعلى من معاوية) رواه البخارى فى تاريخه ، أو قال : (ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرئاسة والملك) ، وقال عبد الله بن عمر : (ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية بن أبى سفيان ، قالوا : وأين أنت من أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ ؟ قال : أولئك أفضل منه وهو أسود منهم) .

ووصفه عبد الملك بن مروان عندما مر بقبره فقال : (إنه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، كان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى) .

نعم ، لقد كان سائس أمم ومربى دول ، وراعى ممالك ، وكفى بقول سيدنا عمر بن الخطاب لجلسائه يوماً : (تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية) ، دليلاً على أنه سباق للعظائم من الأمور .

وكان يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك وبدا صلاحه ، فابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد :

منها : الأسطول لحماية الثغور ووقاية فروج البلدان من تطرق الأعداء ، والبريد لسرعة وصول الأخبار بمتجددات الأحوال ، وناهيك بها من نعمة علمت مزاياها الملل الآن ، فما زالت ترقيها حتى كان من بعض خدامها تيار الكهرباء وأجنحة البخار ، وديوان الخاتم وهو ديوان به نواب ، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور ، ووصل التوقيع إلى ذلك الديوان أثبتت فيه نسخة وختم عليها بالشمع ، وختم بختم ذلك الديوان لمضاهاته عند اللزوم لمراجعة الحساب .

وفضائله كلها غرر :

منها : ما رواه البخارى : أن مولى لعبد الله بن عباس قال له : إنى رأيت أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان أوتر بركعة ، فقال له : (إن معاوية فقه) .

ومنها : ما رواه الترمذى وقال : إنه حديث حسن : أن رسول الله ﷺ دعا لمعاوية فقال : « اللَّهُمَّ اجعله هادياً مهدياً » .

ومنها : ما أخرجه الحارث بن أسامة من أنه ﷺ ذكر مناقب الأربعة الخلفاء وجماعة آخرين من أصحابه ، ثم قال : « معاوية بن أبى سفيان أحلم أمتى وأجودها » ، محا عنه بهذه الدعوة المباركة المقبولة مضائق النفس وثورانها ، ونزع عنه حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة ، ولا أحسن من هاتين الصفتين كما لا أقبح من الغضب والبخل .

وأخرج مثله « المنلا » فى سيرته ونقله عنه المحب الطبرى فى رياضه أنه ﷺ ذكر مناقب الخلفاء الأربعة وجماعة من أصحابه ، ثم قال : « ومعاوية بن أبى سفيان أمينى وصاحب سرى » .

ومنها : أنه دخل ﷺ على زوجته أم حبيبة ورأس معاوية فى حجرها وهى تقبله فقال : « أتحبينه ؟ » فقالت : وما لى لا أحب أخى ؟ فقال ﷺ : « إن الله ورسوله يحبانه » .

ومنها : ما رواه الحافظ أحمد بن منيع قال : قال النبى ﷺ : « عزيمة من ربى وعهد عهده إلى أن لا أتزوج إلى أهل بيت ولا أزوج بنتاً من بناتى لأحد إلا كانوا رفقائى فى الجنة » .

ومنها : بشارته بالخلافة ، فقد روى أحمد بسند حسن : أن معاوية رضى الله عنه أخذ الأداوة [١] لما اشتكى أبو هريرة وسار بها إلى النبى ﷺ فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ ، فقال : « يا معاوية ، إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » .

ولى قيادة الجنود فى الشام وثغور الروم فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب

---

(١) الأداوة المطهرة : وهى إناء للماء من جلد يردف خلف الراكب ، وهو ما يعبر منه فى العرف (بالزمزمية) .

(وذلك بعد موت أخيه يزيد الخير الذى كان قائد هذه الجنود ، فمرض فاستنابه منابه حتى مات ، فأقره سيدنا عمر بن الخطاب) ، وناهيك ببصيرته الفاروقية فى الانتقاد والانتقاء لمثل الشام فى ذلك الوقت الملتهبة فيه قلوب أهل البلاد بنار الحقد على جماعة المسلمين إثر الفتوحات الإسلامية والمصاعب المكتنفة بذلك المقام ، فأقام فيها نحواً من عشرين سنة عاملاً لسيدنا عمر بن الخطاب ، وسيدنا عثمان ابن عفان ، ثم أضاف إليها مصر ، ثم تسمى بالخلافة ومكث نحواً من عشرين سنة أخرى خليفة ، ولم يشك أحد من معاوية رضى الله عنه ، بل كانت الناس راضية عنه عاملاً وهم فى عهد خلافته أرضى .

ومن عجائب فراسته أنه قال : « إن أهل مكة أخرجوا رسول الله ﷺ فلا تكون الخلافة فيهم أبداً ، وإن أهل المدينة قتلوا عثمان فلا تعود الخلافة إليهم أبداً» .

مثل إذا شئت معرفة فضل سياسته وشخص إن أردت الوقوف على مقدار مدارك عقله ونبله الموقع الذى صارت إليه الأمة الإسلامية بعد فتح الشام وثغوره والمقام الحرج الذى صار فيه قائدها وحاكمها ، وتأمل كيف كان حالها فى نظر أمة الرومان وجمهورية رومة أولاً ، ثم امبراطوريتها ثانياً ، لاعتبارهم إياها أقدس مكان لأنها وطن الأنبياء ومكان المعجزات ، وميدان الأديان ، وبعد فتح مصر التى أقل وصف لها ما قاله الاسكندر المقدونى : « إن مصر مركز للعالم بأسره إذا انبعثت منها أنصاف أقطار فإنها تمر بجميع الأمصار فيسهل على القابض عليها أن يصل منها إلى حيث يريد ويختار » ، لا أشك فى أنك تدرك مركز الشرق الإسلامى إزاء هذا الحال ، ومركز الغرب إزاءه أيضاً ، وتعتقد أنه من أعسر المواقع وأحرجها .

أنشأ سيدنا معاوية رضى الله عنه فى سنة (٢٨) وهو عامل الشام فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه أسطولاً سافر به فى البحر ، فافتتح جزيرة قبرص ، وكان فى عمله هذا مصداق قول رسول الله ﷺ لأم حرام ، أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن أم حرام (بالفتح) بنت ملحان وكانت خالته : أن رسول الله ﷺ قال (من القيلولة) فى بيتها فاستيقظ وهو يضحك فسألته

فقال: « عرض عليّ أناس من خيار أمتى يركبون ثبج البحر الأخضر كالملوك على الأسرّة » ، قالت : فقلت: يا رسول الله ، أدع الله أن يجعلنى منهم ، قال : «أنت من الأولين » ، قال : فتزوجها عبادة بن الصامت فأخرجها معه ، فلما جاز البحر ركبت دابة فصرعتها .

وقال ابن الأثير : وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدفنت فيها [١] ، وكان أمير ذلك الجيش سيدنا معاوية بن أبى سفيان ، وضرب عليها جزية عظيمة .

ثم فتح من الجزر إقريطش « كريد » وجزيرة « كوس » ، وجزيرة « رودوس » وجزيرة « إروادة » قرب القسطنطينية ، ومن البلاد لحد قيسارية (قيصرية) .

انظر لعمله رضى الله عنه فى فتح هذه الجزر ، تجده أدرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول أوروبا فيها الآن ، وأصبحت تتناطح عليها من أجله ، وأن عمله فى ذلك الوقت عمل الحكيم الحليم العاقل الحازم الذى قيل فيه :

ألبس لكل حالة لبوسها　　　إما نعيمها وإما بوسها

صان كرسى الملك بالأبهة والعظمة ، وجلب إليه القلوب بحسن المجاملة وملكها بجميل المعاملة فهابه العدو وطمع فى كرمه الصديق ، وجيش المسلمين فى ذلك الوقت لم يصل إلى مائة ألف مقاتل وجميعه منتشر فى البلاد من الشام إلى أرمينية ، ومنها إلى مصر وغيرها من الجزر القصوى والأراضى التى افتتحت من بلاد العرب إلى الصين .

---

(١) أم حرام لا أم هانئ كما زعم بعضهم عند ذكر خبر المسجد الذى شيده مولانا السلطان فى قبرص ، قالوا على قبر أم هانئ : وأم هانئ لم تهاجر من مكة ، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ خطبها بعد هرب زوجها هبيرة إلى اليمن وبقائه على كفره حتى مات ، فقالت له : إنى مصيبة فأخاف أن يؤذوك يا رسول الله ، فأثنى عليها فقال : « خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش ، أحناه على ولد وأرعاه على زوج فى ذات يد » ، ثم لما نشأ بنوها عرضت نفسها على رسول الله ﷺ فقال : « أما الآن فلا » ، فقد أنزل الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ سورة الأحزاب آية : ٥٠ ، فأم هانئ ما هاجرت مع الرسول فضلاً عن الذهاب لقبرص .

كانت الدولة في عهده بدوية حضرية ، فكان اجتماعها وتعاونها في حاجاتها بالمقدار الذى لا يورث الرفه والدعة والترف البالغة مبالغها فى عهد المعاش والمسكن، فكانت الأمة مقبلة على الدنيا بالمقدار الضرورى فقط ، محافظة على البعد من الانغماس فى الترف ، وأسباب الشهوات التى لا توجد دواعيها إلا فى نهاية العمران والحضارة اللذين هما نهاية الشر والبعد عن الخير .

ثم انفرد له الأمر فحارب الروم بحراً وغزاهم براً ، وأغرق من سفن قسطنطين الثانى جزأ عظيماً فى خليج « الصيالوق » بسواحل إقليم « ليسيا » من الأناضول فى سفح جبل (فينكس) .

ثم زاد فى مقدار أسطوله وسيره فى زمن الربيع حتى بلغ به سواحل مرمرا ، فنزل غرب القسطنطينية وحاصرها ست سنين يؤخر فى كل سنة (فى تشرين الثانى) الموافق (نوفمبر) أساطيله إلى مينا (سيزنقة) التى كان استولى عليها ، ثم يعود للحصار زمن الربيع .

ثم سير جيشه الكثيف وأمر عليه سيدنا سفيان بن عوف ، وأمر ابنه يزيد بالغزاة معه ، فتثاقل واعتل فأمسك عنه ، ثم أصاب الناس فى غزاتهم جوع ومرض شديد ، وسمع عن يزيد بيتين وهما :

إذا جلست على الأنماط مرتفعاً	فى دير سـمعان حول أم كلثوم
فما أبالى بما لاقت جـنودهم	بالفرقدونة من حـمى ومن نوم

فعلم أنه أراد بتثاقله إتمام لذائذه فأقسم ليلحقن بسفيان بن عوف فى أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس وسار ، وكان فى الجيش سيدنا أبو أيوب الأنصارى فاقتتل المسلمون واشتدت الحرب بينهم ، وتوفى أبو أيوب عند القسطنطينية بالقرب من سورها وهو ممن شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وصفين مع علىّ وغيرها من حروبه .

وفى تشديده على يزيد فى اللحاق بالجيش ما لا يخفى من أنه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يعرف فيه قرابة ولا رحماً ولا يصون نفسه ولا أولاده عن الجهاد فى سبيل الله ، ومقاسمة المسلمين فيما هم فيه من خير ومن شر ، ثم استمرت الغزوات براً وبحراً وقواده فيها « بسر بن أرطأة » ، و« سفيان بن عوف»

و« فضالة بن عبيد الأنصارى » ، و« مالك بن عبد الخثعمى » ، و« عمرو بن يزيد الجهنى » حتى فتحوا من البلاد فى مدة وجيزة ما لو أردنا ذكر خبرها لاستلزم أسفاراً ضخمة .

اختصوا بالعناية الألهية فحالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ، فلم ينحرفوا عن سنن الاعتدال ، ولم يغلب الرجل منهم على رأيه غالب ، ولم يلفته عنه أدنى الرضا وأدنى السخط ، وثقوا من أنفسهم فوثقت بهم الأمة وأصبحوا متحدين فى آرائهم غير مختلفى الأهواء .

وإلى هنا يحق للقلم أن يقف دون وصف غرابة هذا المشهد الذى تفاوتت فيه مراتب الهمة والعزيمة إلى أعلى ما يمكن من منازلها الرائعة ، يحق له أن يقف دون العجب من هذا الحال الذى فات سعة العلم وتعدى قوة العقل وأصالة الحكم ، وذهب بكثير من الناس إلى ما وراء عجب المحسوسات وعلا بهم فوق ما تتخيله الأفكار ، ألا عارف يخبرنى كيف كان ذلك : مقام الخلافة يحفظ ، ومعظم جزر البحر المتوسط تؤخذ ، وبلاد إلى حدود الصين تفتح ، والروم تهدد وتحصر وجيش الدولة لا يبلغ مائة ألف نفس على الأكثر ، منتشر فى الجهات كما ذكرنا ، وعلى فرض اجتماعه فهو جزء من ثمانين من الثمانية ملايين الذين تحت حكومة هولندا من مسلمى الجاوه الآن فضلاً عن بقية الملايين المنتشرة على وجه الأرض .

ما بالهم تعددوا بعد توحدهم وتفرقوا بعد تجمعهم : أين التناصح بالحق والتواصى بالصدق والاعتصام بالصبر ؟ أين الحق الذى فرض على كل مسلم القيام به لدينه ونفسه وأهله ، وبلده ووطنه ؟ اللَّهُمَّ إما أن أولئك كانوا ارتقوا عن أفق الإنسانية إلى عالم سماوى أو تكون هذه الملايين انحطت عن أفقها الإنسانى إلى أفق العجماوات .

إذا كان لا بد من مذكر بالخير ومشير بالرأى فليحقق لمن هو مطلوب منهم الإصلاح وموكول إليهم أمر الأمة وهم المسئولون عن كل صغيرة وكبيرة تلامسها بين يدى الخالق والمخلوق ، إن البدع والتعاليم الفاسدة التى فرطوا فى منعها جعلت المسلمين شيعاً ، وأذاقت بعضهم بأس بعض حتى صار الكل غرضاً لسهام مظالم الأعداء ، ولا تزال الأمة تزداد تفريقاً حتى تزعزعت عقائدها وفسدت

آدابها وتجرأت الناس على استباحة المحظورات ، وأصبح لها أقبح الأثر فى العوائد والأخلاق .

إن باب هذه الفتن إنما فتح على الأمة بانصراف كبرائها عن الجادة المستقيمة ، وأن الله لمطلع على أحوالهم عالم بما أضاعوه من أمر عباده ، ولقد كان لهم سوء الأثر فى تضليل هذه العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم فليتقوا الله فى هذه الأمة ، ولتعلم هى أنها أسرفت على نفسها ، وأن هى أفاقت أسفت كل الأسف على ما فرطت وندمت ، وإن كان الندم لا ينفعها على ما فات فربما ينبهها إلى ما هو آت .

هذا بعض الشيء من هذه السيرة الجليلة سيرة هذا الفاتح وأصحابه ورجال دولته الذين جمعوا أمرهم بعد الشقاق عسانا نتعظ بها فنلم شعث الفرقة ، وقد نبع قوم ينتقصون فعله وينالون منه ، وهم أقل من أن يعدوا فى مصاف الرجال ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ .

ولكن أهل السُّنَّة جميعاً على حب أصحاب النبى ﷺ ، ودفع التأثيم عنهم كالشأن فى المجاهدين ، لأن الله امتن عليهم بمنة لم يشاركهم فيها أحد ، وهى حلول نظر رسول الله ﷺ فيهم وإمداده لهم بما قطع غيرهم من اللحوق بهم فى باهر فعلهم وكمالهم وعظيم استعدادهم وسعة علومهم وحقيقة شرفهم ، فاللَّهُمَّ ارض عنهم واحشرنا معهم واجزنا بمحبتهم خيراً واهدنا لبعض عملهم هذا ، آمين يا رب العالمين .

❊ ❊ ❊

(الوليد بن عبد الملك) (*)

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو العباس الأموى ، بويع له بعهد أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة ست وثمانين ، وهو ثانى الخلفاء المروانيين .

أى بلاد فتحت وأى مساجد عمرت وأى آية للحضارة والعمران ظهرت فى عهد هذا الخليفة المجاهد المقدام الفاتح أبى الأيامى ، وثمال اليتامى ، وملجأ العجزة والمساكين الذى شرح القلوب المحزونة ببره ، وفتح البلاد المستحكمة بسيفه وعدله ، شبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فعله وفتحه وانتشار الإسلام بفضله حتى قالوا : وأيامه كأيامه .

كأنما كان فى فعله متحرياً مكان الوجدان من القلوب ومقر التصديق من العقول لذلك تجد الذى عمره من المساجد وشيده من مواضع العبادة من أنفس ما يتقرب به إلى الله العامل العابد ، وما فتحه من البلاد والممالك من أشرف ما يفتخر به الإنسان الفاتح القائد .

فتراه مثلا يجدد فى مسجد رسول الله ﷺ فى المشرق ويفتح الأندلس للمسلمين بالمغرب ، إن ذلك لمن أعظم نتائج الفطنة وثمرة العقل ، ولذلك كان عصره من أرقى العصور مدنية وأغزرها فتحاً واتساعاً وعمراناً وأجلها عظمة وأبهة لاشتراك الأمة فى أعمال الخير وانصرافها فى سبيل المجد والاجتهاد وتوجه سعيها فى التغلب على الغير والذب عن الحوزة .

ولى الخلافة فى أواخر سنة ست وثمانين كما قدمنا ، فما دخلت سنة سبع

(*) انظر : تاريخ مختصر الدول ١١٣ ، العقد الفريد : ٤/ ٤٢٤ ، الفخرى ١٢٧ ، تاريخ الخلفاء ٢٤٣ ، نهاية الأرب : ٢١/٢٨١ - ٣٣٨ ، المعارف ٣٥٩ ، المختصر فى أخبار البشر : ٢/١٩٨ - ١٩٩ ، المحبر ٢٥ - ٢٦ ، الأخبار الطوال ٣٢٦ - ٣٢٩ ، الإمامة والسياسة : ٢/٤٦ - ٦٩ ، البدء والتاريخ : ٦/٢٧ - ٤٠ ، البداية والنهاية : ٩/١٦١ - ١٦٦ ، دول الإسلام : ١/٦١ - ٦٧ .

وثمانين عليه إلا وهو مقسم أوقاتها بالفكر والخيال جاعل أيامها وساعاتها ينابيع سعادة ووسائل ارتقاء .

بدا بتعيين عماله فى البلاد التابعة للخلافة الإسلامية بانتقاء وانتقاد يفوقان حد الوصف ويتعديان موضع التحرى وحسبك انتقاء مثل سيدنا عمر بن عبد العزيز أميراً على مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فقد جمع بين المسجد وحمامته وخلى بين الخطيب ومنبره .

ثم شرع فى بناء جامع دمشق الذى هو إحدى عجائب الدنيا جمع فيه مائة ألف ماهر من الصناع ، وحمل إليه أربعين حملاً من الفسيفساء هدية من ملك الروم ، ثم أتت وفوده لمشاهدته فصرعتهم عظمته واستفزتهم أبهته ، وناهيك بهيبة مكان سلاسل قناديله من اللجين المسبوك ، ثم كتب للجهات بتوسيع المساجد وبنائها ، فكتب بإدخال حجر رسول الله ﷺ فى مسجده وتوسعته بمائتى ذراع ، وهكذا جدد المسجد الحرام ومسجد قباء ومسجد مصر .

ثم والى الفتوح ، وسير قتيبة بن مسلم الباهلى من أكابر قواده ففتح خوارزم وسمرقند وسردينيا .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ، فجهز مسلمة أخاه والعباس ابنه لغزو الروم ، فجمعت خمسون ألفاً ، فلما التقى العسكران غلبت الروم وفتحت بلاد كثيرة من مملكتها .

وفى سنة تسع وثمانين فتحت جزيرتا « منورقة » ، و« ميورقة » من جزر بحر الروم شرق الأندلس .

وفى سنة تسعين فتح عسكر الإسلام « نسف » ومدائن أخرى وحصوناً من أزربيجان كثيرة ، وفتح محمد بن مروان جهة دربند [(١)] وحصونه ، ودان له ما وراء باب الأبواب [(١)] ، وفتح الحجاج بخارى ، ووصل محمد بن القاسم لأرض الهند ودخل قتيبة « قشغر » أول مدن الصين وافتتحها بعد حرب عوان لاقى فيها ابن أخت ملك الصين فى مائتى ألف مقاتل .

---

(١) راجع دائرة المعارف وجغرافية ملطبرون فى الكلام على هذين الموضعين تجد ما يدل على أن دربند أو باب الأبواب هو سد ذى القرنين عليه السلام .

ثم دخلت سنة اثنين وتسعين ، وكان موسى بن نصير أمير المغرب وعامله على أفريقية ، وكان استنزل يوليانوس لطاعة المسلمين بعد حروب كثيرة ، وعرفت منه السبيل لفتح الأندلس ، فأرسل خيرة القواد طارق بن زياد الليثى لفتحها ، فجاز طارق البحر فى (٣٠٠ فارس) من العرب ، واحتشد معهم من البربر نحواً من عشرة آلاف وصيرهما عسكرين ترأس على أحدهما ، ونزل به جبل الفتح الذى سمى باسمه ، والآخر رأس عليه طريف بن مالك النخعى فلقيهم رودريك فى نحو من أربعين ألف فارس فهزموه وافتتحوا البلاد وغلبوهم على ما بأيديهم مع كثرتهم وقوتهم لأنهم مقبلون بقلوبهم متحدون بوجهتهم .

فلما بلغ خبر هذا الانتصار موسى بن نصير استخلف على القيروان ولده عبد الله ونهض فى سنة ثلاث وتسعين فى عسكر عظيم ودخل الأندلس ، وأتم الفتح إلى برشلونة فى الشرق وأربونة فى الجوف ، وصنم قادس فى الغرب .

أصبحت الأندلس وهى المملكة المعدودة فى الرتبة السادسة بين الممالك الأوروباوية داخلة تحت حكم مملكة العرب وجناح الإسلام يرف فوقها غرباً وفوق قارة آسيا شرقاً .

انظر لعزيمة هذا الفاتح الجليل ومضاعفة الدين واليقين لقوته ، أجمع رأيه أن يأتى إلى المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام خائضاً ما بينهما من أمم الفرنجة والأعاجم وغيرهم ، يعنى أنه يخترق مملكة فرنسا من شمالها فيدخل فيها ، ثم يعرج من غرب أرض سويسرة أو مملكة جرمانيا ، ثم يدخل فى مملكة أستوريا ، ثم إلى الروم‌للى إلى القسطنطينية إلى الأناضول فدمشق أو ما حوالى ذلك ، وكاد يكون ذلك لولا حرص الوليد على جماعة المسلمين وقلقه عليهم وموالاة كتبه لموسى بن نصير بالعودة ولزوم طاعته ، فقفل راجعاً وولى ابنه عبد العزيز عليها وأسكنه قرطبة ، ومن هنا اتصلت العرب بأراضى الفرنجة وتوغلوا فيها ، ثم دخلت سنة ثلاثة وتسعين ففتح فيها مدينة أردبيل والكرخ والبيضاء وخوارزم ، وفتح فى سنة أربع وتسعين كابل وفرغانة والشاش ، وفتحت أقاصى جهة الباب ومدينة طوس فى سنة خمسة وتسعين .

ثم دخلت سنة ست وتسعين التى أراد الله أن يتقلص ظل هذا الخليفة العادل عن الدولة فيها ولا معقب لحكمه ، ولا رب سواه فقضى رحمه الله بدير مران

وحمل على أعناق الرجال ، ودفن بدمشق وتولى دفنه سيدنا عمر بن عبد العزيز فودع الدنيا مصافحاً لخير أهلها ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر استقر فيها نصاب الدولة فى مقر عزه من السلطان والقدرة وكمال الفضيلة ، ولولا أن عاجله الفناء لاقتطع من الممالك الأوروباوية ممالك عظيمة ، وشيد لخلافته ومهد لعصابته ما هو أجل وأفخم مما شاده وبناه ، وقد رزقه الله حظاً فى نفسه وذريته وأهل بيته ، فولد له من الذكران أربعة عشرة ، ومنهم ولده عمر ، فحل بنى مروان الذى كان يركب فى ستين من صلبه .

اتسعت ممالك الإسلام فى دولته اتساعاً لم يعهد له مثيل ، وجبى من الأموال شيئاً كثيراً ، وكانت الدولة فى عهده فى غاية الثروة ، وكان فى بيت ماله ما يكفى الحاجات وذوى الحاجات ستة عشر سنة ، وحث الناس على الأبنية والعمار وبناء الضياع ، وأصلح الله به وبهم الأرض فأحالوا القفار حواضر ، وتهيأت الأمة واستعدت لقبول كل خير ، وكان مع اتساع هذا الملك وزيادة عمرانه يقظاً فى أمر دولته لا تفوته الذرة ، ولا تكاد نفوس أعدائه تحدث سرها بمخالفته ، وكانت له عيون تطالعه بأخبار الناس منبثة فى كافة أرجاء ممالكه ليقفوا له على متجددات الأحوال ، من ذلك ما يحكى أن الهيصم بن جابر أحد الخوارج عليه اختفى وهرب إلى المدينة لما أحس بشدة التضييق عليه والطلب له ، ثم طال شعره واختضب وغير من شكله وهيئته ، ودخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد ، ثم بلغ الوليد أن أمره هذا قد أعيى الحجاج ، فنقب عليه مرة فعلم أن الرجل بالمدينة على الهيئة التى ذكرناها ، فكتب إلى عثمان بن حيان بالمدينة ينبئه بأن الرجل عنده ويصف له من أمره وحاله ما هو عليه ، فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس ، فنظر إليه رجل كان بجانبه وقال له : ما أنا بمخليك ، وقبض عليه وأتى به عثمان بن حيان وأقر أنه الهيصم .

ومن فضائله أنه كان يختم القرآن فى ثلاث ، وكان يبر حملته ويقضى عنهم ديونهم ، وكان محباً للخير محبوباً عند الناس ساهراً على ما فيه سمو مقام الخلافة ، وهو أول من حمل الطعام إلى المساجد .

ومن غرر أعماله التى سبق بها من جاء قبله وأتعب بها من جاء بعده أنه حبس المجذومين والعميان والزّمنى ، وأجرى لهم الأرزاق وبنى لهم البيمارستانات

وحشر إليها المرضى وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً ، وشيد التكايا وجمع فيها المعوزين وقال للمحتاجين : لا تسألوا .

هو أول من لاحظ أمر الصحة بأشرف معانيه ، فقطع بين أصحاب العلل والأصحاء ، ووصل بينهم وبين النعمة والإحسان ، فمنع تلك الوجوه المحتاجة من الخروج للطلب فى الأسواق ، وكلف القادر الصحيح بالخدمة والعمل ، فحقق إنصافه بين الرعية بالعدل ، لأن فى انزواء المقعد ظهور القادر الذى وفقه الله للعمل يتميز بعمله منهم ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس ، وتناهى فى الاعتناء بأمر الصحة حتى كان من عوائده سؤال الأطباء عن أهوية البلدان ونفعها للأمراض ، فلما سمع منهم أن هواء دمشق ينفع المجذومين أسس هناك بيمارستاناً للمجذومين لا تزال آثاره باقية خارج المدينة للآن .

وهو أول من وضع المنار فى الطرقات وناهيك بها من نعمة تحقق الأمن العام وتستدعى زيادة العمران .

وهو أول من وضع علامة الأميال فى الطرقات ما بين المدينة والشام وغيرها ، ورقم عليها أعداداً ليعلم المسافر القدر الذى قطعه والباقى عليه من سفره .

وهو أول من حفر الآبار من الشام للمدينة ومن المدينة لمكة يشرب منها الوارد والمتردد .

أفلا ينبغى لنا أن نذكره بالخير إذا رأينا الآن اهتمام الممالك والجمعيات بأمر الصحة العمومية ، وجمع الإعانات لها ، وعجزهم على كثرة مواردهم عن القيام بما كان قائماً به الوليد .

أفلا ينبغى أن نذكره بالخير إذا رأينا الآن عدد الكيلومترات على جانبى السكة الحديدية وهى العلامات التى كان هو أول من وضعها بالفوائد التى بيناها ولضبط مواقع الوقائع من خير أو شر ، نعم ينبغى لنا ذلك لنعرف للمبتكر حقه فى الفضيلة وللمخترع قدره فى الإحسان .

وبالجملة فقد كانت الدولة والأمة فى مدته آية فى العمران والحضارة وتشييد مواطن الخير والبر والإحسان ، فلا تجد بقعة إلا وفيها شىء من ذلك .

كثرت فى عهده الخيرات ولم يعهد عليه فيها شىء من أبواب الظلامات

كتسخير الرعايا بغير حق أو اغتصاب شيء من معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم، ولم يدخل الضرر على أحد بانتقاص عمرانه أو تخريب جداره لغاية له ، ولم يتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ولم يجنح إلى المكوس وزيادتها والتناهى فيها للحد الذى لا يجيزه دين ولا شرع ولا عقل ولا طبع ، كما رأينا وسمعنا به ، وهذا مصداق ما قاله الموبذان (لبهرام) ملك الفرس من أن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة وهى بحبوحة العدل والخوف من الله وهو رأس الحكمة (لأنه لا شيء بعد القيام بطاعة الله والتصرف تحت أمره ونهيه) ثم لا قوام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الله ، وجعل الملوك قيمة عليه .

هذا حال الدولة وهى فى نشأة الحياة تسرى روح العدل فيها من السلطان إلى أهله إلى حاميته إلى جنده إلى أمته إلى جميع رعيته بالتشبه والاقتداء ، فتجد الكل سواء فى الملابس والشارات والعوائد والأخلاق والأحوال والتماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، وهذا معنى قولهم : « الناس على دين ملوكهم » لأن الملك غالب والرعية مقتدون لاعتقادهم الكمال فيه ، أما حالها وقد صارت إلى غير ذلك فالتكاسل والاستعباد حتى تصبح الأمة عالة على غيرها ويقصر الأمل فيها ، ويضعف الاعتمار ببطلان النشاط ، واختلال القوى ، وتتلاشى المكاسب والمساعى لعجز الناس عن المدافعة عن أنفسهم وعما فى حوزتهم وتنقبض الأيدى عن العمل ، فيصبح طعمة لكل آكل ، ثم يذهب ما للملك من الأبهة والجمال ، وتغشى الناس أخلاق الحقد والحسد ، فإذا تم ذلك والعياذ بالله عمت النكبات والمصادرات ، وضعفت الشوكة الخارجة ، وأصبح سهم القدرة لا يتعدى الأمة ، وأصبحت هى معرضة للهلاك ، والله أعلم .

* * *

(سليمان بن عبد الملك) (*)

هو سليمان بن عبد الملك أبو أيوب من خيار خلفاء بنى مروان ، ولى الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وتوفى فى سنة تسع وتسعين ، فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وثلاثة شهر بدابق ، بين حلب وعنتاب ، كان طويلاً جميلاً فصيحاً لسناً أديباً متورعاً عن الدماء مؤثراً للعدل محباً للغزو ، روى قليلاً عن أبيه وعبد الرحمن بن هبيرة ، وروى عنه ابنه عبد الواحد والزهرى ، كان حسن السيرة يرجع إلى دين وصحبة للحق واتباع للقرآن وإظهار للشرائع الإسلامية ، وهو أسخى بنى أمية وبنى مروان بالدرهم والدينار .

استكتب يزيد بن المهلب ، والفضل بن المهلب ، وعبد العزيز بن الحارث بن الحكم ، وكان خطيباً ، فمن خطبه الموجزة :

« أيها الناس ، اتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً واجعلوه لكم قائداً فإنه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده » .

كان وزيره سيدنا عمر بن عبد العزيز صفوة أهل زمانه ، فكان يمتثل أوامره فى كل خير وكلها خير ، فأصبح جميع ما أسرف فيه الحجاج منسوخاً : عزل عماله وأخرج من كان فى سجن العراق ، ورد المنفيين وأحيا الصلاة لأول وقتها ، ثم استخلف عنه سيدنا عمر ، ففتح أعماله بخير وختمها بخير فسموه مفتاح الخير .

لم تقصر فى مدته على قلتها من التوسعة على المسلمين ، بل كانت أيامه ذات فتوح متوالية ، وكان غيوراً شديد الغيرة ، فامتدت الدولة فى مدته إلى آخر بلاد الأندلس ، واستتب له الأمر فيها وفتحت مدن الصقالبة ، وحصن الحديد ،

(*) انظر : المعارف ٣٦٠ - ٣٦١ ، مروج الذهب : ٢/١٣٥ - ١٤١ ، المحبر ٢٦ - ٢٧ ، مآثر الإنافة : ١/١٣٨ - ١٤٠ ، العقد الفريد : ٤/٤٢٤ - ٤٣٢ ، الذهب المسبوك ٣٢ - ٣٤ ، تاريخ الخلفاء ٢٤٥ - ٢٤٨ ، تاريخ خليفة بن خياط ٣٢٢ ، البداية والنهاية : ٩/١٧٧ - ١٨٤ ، البدء والتاريخ : ٦/٤١ - ٤٥ .

وسرداً ، وشفاً ، وجرجان ، وطبرستان ، وناهيك بهما ، وهما مما أعيى سابور ذا الأكتاف وكسرى قباذ وكسرى بن هرمز ، بل مما أعى عمر وعثمان ومن بعدهما من خلفاء الله تعالى رضى الله عنهم .

كانت الطريق قبل فتح جرجان مخوفة يتوسطها الأشقياء فيقطعون السابلة ويفسدون فى الأرض ، فكان بهذا الفتح إسبال ستر الأمان على كل قاصد لتلك الجهات للانتفاع من خيراتها التى كانت محجوبة بيد هؤلاء الأشقياء .

حج بالناس سنة سبع وتسعين ومعه سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ففرض لأهل المدينة أربعة آلاف فرض لقريش خاصة ليس فيهم حليف ولا مولى، فدخل جماعة من قريش عليه وقالوا له : إننا جعلنا ذلك لموالينا ، ففرض سليمان أربعة آلاف أخرى .

ثم بعد قضاء الفريضة على أكمل أوجهها عاد إلى مقر خلافته وندب أخاه مسلمة وقطع معه البعوث على أجناد الشام والجزيرة وجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط ، وغير ذلك من أدوات زمانه ، وعقد له على الجيش براً وبحراً ، وخرج معهم بهيئة الخلافة وهيبتها ، ومعه جماعة من الفقهاء حتى نزل « دابق » ، وجاءته الأجناد من كل ناحية فأتم أمر الجيش .

رحل « مسلمة » أخوه بالجيش ، فسلك طريق مرعش وافتتح مدينة الصقالبة كما ذكرنا وشتا حواليها ، ثم سار لطلب القسطنطينية حتى نزل عمورية وبطريقها « ليون » بن قسطنطين المرعشى فوادعه مسلمة وأعطاه رهناً ، وأخذ منه مثله وتعاهدا على المناصحة والمظاهرة على أهل القسطنطينية وحلف « ليون » أن يكون عوناً له ، ثم أخذ ينتقل به الحال حتى دخل القسطنطينية و« تيدوس » حاكم عليها فما زال يلعب بكرة الأروام مرة وبصولجان المسلمين أخرى حتى دس لتيدوس من قتله ، وتفرد بالملك من غير منازع ، ثم غدر بمسلمة ونقض عهده وأغراه بحرق ذخيرته فى كلام طويل يطلب فى مظانه من كتب التاريخ [1] ولاقت المسلمون من الأذى والشدة ما لم يلقه أحد ، وأكلوا الدواب والجلود وأبلوا فى سبيل الله بلاء

---

(١) راجع إن شئت نبذة عن عيون الحقائق مطبوع فى ليدن تجد هذا مفصلاً .

حسناً ، وكل ذلك سببه سلامة النية وصدق الوعد والبقاء على العهد ولا حول ولا قوة إلا با لله :

كل خـليل كنت خاللته ما ترك الله له واضـحة

فكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحـة

هذا وسليمان مقيم بدابق لا يقدر على إمدادهم بشيء من الأزواد لكثرة البرد والثلج الذى قطع بينه وبين جيشه العظيم الذى يبلغ نحواً من مائة ألف مقاتل وقواده ابنه داود ومسلمة بن عبد الملك أخوه وجماعة من أهل بيته وعمر بن هبيرة.

مرض بالحمى فأقسم أن لا يعود إلى مقر خلافته حتى يأتيه خبر فتح القسطنطينية أو يموت حيث هو ، فلما اشتد عليه المرض سأل « رجاء بن حيوة » - وكان وزير صدق لبنى أمية - فى أمر العهد فقال له : (إن ما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين من بعده الرجل الصالح) ، قال : « كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟ » فقال : (أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً) ، فقال : (هو والله على ذلك) ، وأشار على « رجاء » أن يجعل يزيد بن عبد الملك أخاه ولى العهد بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فكتب كتاباً وختم عليه ودعا الناس إلى بيعته مختوماً ، وقال له : (اخرج إلى الناس فليبايعوا على ما فيه) ، فبايعوا، ثم مات سليمان وفتح الكتاب ، فإذا فيه العهد لسيدنا عمر بن عبد العزيز ، فتغيرت وجوه بنى أمية ، ثم لما سمعوا بعده اسم يزيد بن عبد الملك أخيه تراجعوا فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة .

اللّهُمَّ لا زراية [(١)] على السابق ولا تذرية [(٢)] للاحق ، ولكنها فعلة فاتت الجميع حتى الولى والوصى ، فلم يعهد فى جاهلية ولا إسلام عهد رعاية للورع والصلاح والاهتمام بأمر المسلمين أجل من هذا .

لم يمت سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه عن غير عقب ، بل عن أربعة عشر ولداً من الذكور ، منهم داود قائد جيشه فى حرب القسطنطينية وغيرها ولا عن غير قرابة ، فإخوانه كثيرون ، ومنهم مسلمة الذى أبلى فى حروبه وفى حصار القسطنطينية وغيرها فى عهده وعهد الوليد أخيه بلاء حسناً ، ولكن رأى أن

---

(١) زرى عليه زريا وزراية : عابه . (٢) ذريته تذرية : مدحته .

حقوق هؤلاء من جهة لحمة نسبهم به وقرابتهم إليه أقل من حق جماعة المسلمين الذى جعله الله فى عنقه ، فسلم الخلافة لخير أهل زمنه ، فخرج من عهدتها طاهر الذيل ، وناهيك بكلمات وزيره « رجاء بن حيوة » معه فى هذا الموقف الحرج .

يدلنا هذا الحال على أن العلماء فى كل زمن هم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الأمة ، فصلاح حالها بصلاحهم وفساده بفسادهم ، ولقد ابتلى الله المسلمين فى أزمنتهم الأخيرة ببعض علماء لا يعرفون من دنياهم شيئاً إلا نصب هياكل الإطراء ورفع تماثيل المدح لكل رئيس من الرؤساء وعظيم من العظماء فضلاً عن خليفة من الخلفاء .

فسدت أخلاق العامة بالزور والرياء والنفاق والكذب والمحاباة والمصانعة والمداجاة ، بل تزعزع اعتقادهم بسبب ذلك ، وأخذوا ينتصرون لهوى نفوسهم الخبيثة وأهوائهم الباطلة والعلماء لا يصدونهم عن هذا بشرح الحقائق والترجمة عن السجايا الجميلة والأخلاق المرضية .

سأل سليمان بن عبد الملك رضى الله عنه « أبا حازم » ، وكان زاهداً فقال له : (كيف القدوم على الله تعالى ؟) قال : (أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسروراً ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يعود إلى مولاه محزوناً) . قال سليمان : (فما بالنا نكره الموت ؟) قال : (لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم النقلة من العمارة للخراب) .

يا غوثاه من هذه الكلمات !! كيف تقال فى وجه خليفة جمعت خلافته بين أوصال المشرق والمغرب ، وتحت رايته الجيوش الجرارة وآلات الحرب والضرب وأمره نافذ فى قارتى آسيا ومعظم أوروبا وما بينهما ، فإن لم يكن هذا الزاهد من خير علماء الآخرة إذ قالها ، وهذا الخليفة من خير خلفاء الدنيا إذ اتعظ بها فمن؟

وما زالت الدولة الأوروبية المتمدنة توحى للمسلمين بتمدنها حتى اعتقدوا كما برهنت لهم أن الدين حائل دون الارتقاء ، وقيد ثقيل لا يمكن الإنسان من الوثوب إلى معالى الأمور ، ثم سلكت بهم سبيل الترقى والسيادة الذى هدتهم إليه وملكتهم مقاليد العز والسعادة التى مكنت يدهم منها ، ولم تمض الأيام وتتصرم الليالى حتى انكشف السر وظهر الصبح لذى عينين ورأوا أنفسهم يرسفون

فى قيود الذل ، وأن تلك الأمم المتمدنة كانت ترمى لغرض آخر تفننت فيه بحسب أطماعها ، وليس الغرض منه إلا ترك هذه الشعوب لآداب دينهم وعوائدهم وتقاليدهم وإدخالهم مضايق دون الاستصباح لها حتى يمسون ويصبحون مضغة للآكل ، وكان كذلك .

ألا نظرة صادقة من هذه الأمة المسكينة لما كانت فيه ، ونظرة لما صارت إليه لتعلم أنها مخدوعة فيما يبهج الناس منظره ويسر القوم رؤياه فتنتبه لمصابها وتعلم بعلتها ، فلا تحيد عن الهدى الصحيح والطريق المستقيم حتى تخرج من درك الشقاء ولا تنتهى إلى شر المسير :

إنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

* * *

(سيدنا عمر بن عبد العزيز) (*)

ماذا تسع هذه العجالة من وصف هذا الخليفة العالم الورع الزاهد الخاشع الدين اللين السهل القريب الذى ملأ الأرض عدلاً وجاء مصداقاً للخبر المأثور : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) .

ماذا تسع من وصف من أفرد أكابر المؤلفين المؤلفات فى أخلاقه وصفته وفضائله وخصائصه ، وضرب المثل بعدله وشاكل بفعله الجميل أفعال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى قيل : « عدل العمرين » .

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ، وأمه : أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

هو التابعى الجليل الذى روى عن أنس بن مالك ، وعبد الله بن أبى طالب ، وسعيد بن المسيب والسائب بن زيد ، ويوسف بن عبد الله ، وخلائق كثيرين .

ولد بحلوان المعروفة (من قرى مصر) سنة إحدى وستين ، وكان يقال له أشج بنى مروان : ضربته دابة فى جبهته وهو غلام ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: (إن كنت أشج بنى مروان إنك لسعيد) ، قال ذلك لأن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول : (من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً) .

ولى الخلافة وبويع له يوم مات ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين عن عهد منه إليه (كما قدمنا فى ترجمته) من غير علم منه ، فظهرت عليه علامات الاستياء من ذلك ، قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: (أيها الناس ، إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد ﷺ ، ألا وإنى لست

(*) انظر : النجوم الزاهرة : ١/ ٢٤٦ ، العبر : ١/ ١٢٠ ، طبقات القراء لابن الجزرى: ١/ ٥٩٣ ، طبقات الفقهاء ٦٤ ، طبقات ابن سعد : ٥/ ٢٤٢ ، صفوة الصفوة : ٢/ ٦٣ ، شذرات الذهب : ١/ ١١٩ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٤١ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٣ ، تهذيب التهذيب : ٧/ ٤٧٥ ، تاريخ الخلفاء: ٢٢٨، تذكرة الحفاظ : ١/ ١١٨ .

بقاض ، ولكنى منفذ ولست بمبتدع ، ولكنى متبع ولست بخير من أحدكم ، ولكنى أثقلكم حملاً ، وأن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

بدت عليه مخايل الورع والدين والصيانة والزهد والنزاهة من أول حركة بدت منه ، كان شديد التنعم والاختيال فى مشيته ، فخرج عن جميع ما كان فيه من ذلك النعيم والمأكل والملبس والمتاع حتى النساء ، ورد ما كان لزوجته وهى بنت عمه عبد الملك بن مروان إلى بيت المال ، وكان دخله أربعين ألف دينار فرد ذلك كله وخصص لنفقة يومه درهمين ، ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يتعد الواحد ، فكان إذا غسلوه يمكث حتى يجف ، ويأكل الغليظ من الطعام ، ورد جميع المظالم حتى إنه رد فص خاتم كان فى يده قال : أعطانيه الوليد من غير حق .

حدثت زوجته : أنه يكون فى الفراش فيذكر الشىء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ، ويجلس ويبكى وهى تقول : (يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين) .

علم الناس أنه مؤثر دينه على دنياه ، فآثروا حبه على نفوسهم ، أعرض عن ركوب خيل الخلافة والاجتزاء بمركبه الخاص وهجر مكان حكومتها ولازم بيته .

وكانت خلافته سنتين ونصفاً على الأكثر ، أزدان دست الخلافة فيهما به :

فإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

لم يكن هذا الزهد والتقشف من الجنس الذى رأيته أنا وأنت عبارة عن لزوم الرجل كسر الحائط وهو غريق فى لعابه خارج عن بعض ثيابه جامد الفكر لا يتعدى إبصاره موضع قدميه فهو إلى منزلة البله والعته أقرب كلا ، بل كانت الدنيا عنده فى كفة والآخرة فى كفة يزن من هذه لهذه ويزرع فى دنياه ما يجزى بخيره فى آخرته .

كان أول ما بادر إليه رضى الله عنه أن بعث إلى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ابن مروان يأمره هو ومن معه من المسلمين بأرض الروم بترك حصار القسطنطينية والقفول إلى منازلهم لما يعلمه من اشتداد الحال عليهم كما تقدم البيان فى (ترجمة سليمان) ، وبعث لهم بالطعام الكثير والخيل العتاق .

ثم وجه حاتم بن النعمان الباهلى للقتال عن أذربيجان ، وقد أغير عليها فطرد عنها القوم وأزال عنها الخوف وألبسها لباس الأمن .

انظر لعلو رأيه وصائب فكره فى عمله وخبرته برجاله : ولى عدى بن أرطأة الفزارى على إمرة البصرة وناهيك به ، واستقضى عليها الحسن البصرى رضى الله عنه فاستعفاه فأعفاه واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكى المشهور :

والألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وبعث على إمرة الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، واستقضى عليها عامر الشعبى ، وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمرة المدينة أبا بكر محمداً بن عمرو بن حزم .

وقد حج بالناس ، وأرسل الوليد بن هشام المعيصى وعمر بن قيس الكندى للغزو ، وولى عمر بن هبيرة نيابة الجزيرة ، ثم أخذ فى فحص الأعمال فناقش اليزيد بن المهلب الحساب وحبسه لأنه طالبه بما قبله من الأموال التى كتب إلى سليمان بن عبد الملك أنها حاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت بذلك لأرهب الأعداء، ولم يكن بينى وبين سليمان شىء ، فغضب عمر لضياع مال المسلمين ، ثم أمر بأن يلبس جبة من صوف وينفى إلى جزيرة دهلك التى كان ينفى إليها الفساق ، ثم شفع فيه فبقى فى سجنه ، وعزل الجراح بن عبد الله الحكمى عن إمرة خراسان بعد ستة أشهر أو خمسة لأنه أخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ، وكان يقول لهم : أنتم إنما تسلمون فراراً منها (حبذا العدل والفضل) .

ثم دخلت سنة واحد ومائة ، وكانت بدأت الدعوة لبنى العباس فبقى فى مقر الخلافة وحج بالناس أبو بكر محمد بن محمد نائب المدينة ، واشتغل سيدنا عمر رضى الله عنه بتبريد البريد من والى المدينة والشام .

وفى هذه السنة مات كثير من الصحابة والتابعين لاتحاد ساعات آجالهم وتقارب أعمارهم نذكر منهم الصحابى الجليل سيدنا الليثى الكنانى وهو آخر من رأى النبى ﷺ ورآه بالإجماع .

وروى عن النبى ﷺ : أنه كان يستلم الركن بالمحجنة ، وذكر صفته عليه السلام وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً بالإجماع فى جميع الأرض ،

اجتمع عنده مائة ألف أسير من الروم ، فساوم دولتهم على ردهم ، وأخذ «ملاطية» ، وما زال حتى أقنعها واشترى هذه المدينة بهؤلاء الأسارى وبناها ، وأصبحت من المدن المهمة .

وفضائل عمر كثيرة أعظم من أن تحصى وتستقصى :

فمنها : أنه أبطل الكلام فى علىّ رضى الله عنه وقرأ على المنبر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ، واستمرت الخطباء على قراءة هذه الآية .

ومنها : أنه جمع القرآن وهو غلام صغير . قال الزبير بن بكار : إن أول ما استبين من حرصه على العلم ورغبته فى الأدب أنه طلب من أبيه رحلته إلى المدينة وقعد إلى مشايخ قريش وتجنب شبانهم ، فتأدب بأدبهم واشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه عبد الملك بن مروان فخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة (٢) .

قال عمر بن ذر : لما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبد الملك قال له مولاه: ما لى أراك مغتماً ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا أنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه ولا طالبه منى .

ولا عجب فى ذلك ، فإنه كان يتفكر فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذوى العيال الكثير والمال القليل ، وهم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، ويعلم أن الله سائله عنهم .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .

(٢) نبذة تاريخية : فاطمة هذه بنت خليفة وجدها خليفة ، وأخوها خليفة وزوجها خليفة وأغرب منها أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وأم ابنه يزيد ، أبوها خليفة وهو يزيد وجدها خليفة ، وهو معاوية وأخوها خليفة ، وهو معاوية بن يزيد وزوجها خليفة ، وهو عبد الملك وعمها خليفة ، وهو مروان وابنها خليفة ، وهو يزيد وابن ابنها خليفة ، وهو الوليد بن يزيد وأولاد زوجها خلفاء ، وهم الوليد وسليمان وهشام ويزيد أولاد عبد الملك ، وكل هؤلاء محارم .

كان لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، دخلت عنده أشراف بنى أمية يسألون لهم عملاً ، فقال لهم : أتحبون أن أولى كل رجل منكم جنداً ، ترون بساطى هذا ؟ إنى لأعلم أنه صائر إلى فناء وبلاء ، وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم فكيف أوليكم دينى ! أوليكم أعراض المسلمين ! هيهات ، فقالوا : ما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الأمر إلا سواء !!

كان محباً للعدل والقسط يبغض الجور والعسف ، لا يرى عنده شيء أفضل من الحق ومن كلامه : « إن كانت الناس لا يصلحها الحق فلا أصلحهم الله » ، وكان يقول : « عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم لا على قدر أجسادهم » .

بلغ الناس أن يقولوا : « إن الغنم والأسد والوحوش كانت ترعى مع بعضها فى مرعى واحد فى عهده » .

كتب إليه الجراح بن عبد الله : (إن أهل خراسان قوم ساءت أخلاقهم ، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى ذلك فعل ورأيه الموفق) ، فكتب إليه عمر : (أما بعد : فقد بلغنى كتابك تذكر به أن أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم ، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام) .

كان أشد الناس حرصاً على العمل بسنن من قبله من الأصحاب ، قال الزهرى: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله يكتب له بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات ، فكتب إليه بالذى سأل ، ثم كتب إليه : (إنك إن عملت بمثل عمر فى زمانه ورجاله فى مثل زمانك ورجالك كنت عند الله خيراً من عمر) .

يزعم الأوروبيون أن الشرقيين يعاملون من حكامهم معاملة الأنعام البهم لا يقوّمون إلا بالسياط ، وأنهم هم الذين رفعوا عنهم سوط العذاب وأدنوهم من شرعة العدالة ، وكشفوا عن عقولهم غمة الوهم ، إلا أنَّ هذه الدعوى مما تستخزى النفوس بعد أن اجتث الدين الإسلامى كل جذور الجهل ، وأخرج الآخذين به عن كل عقيدة باطلة ، ودعا الناس إلى أصول الفضائل التى أتى عليها وأمهات المحامد التى أحياها وقواعد العدل التى أسسها وسد ينبوع الفساد وقطع ذرائع كل محرم ، فهذا عدل خليفة من خلفاء الإسلام على رأس القرن الثانى من

الهجرة ، كانت أوروبا فيه فى قطع من الظلمات فى كل شىء ، فإن لم ينفرد المسلمون بسوى السابقية فى العدل لكفاهم فضلاً .

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما صليت وراء أمام قط أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى حين كان على المدينة ، قالوا: كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقراءة .

وكان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ (وهو أول من سمى حمامة المسجد) ، لا يأتى أحداً من الخلفاء ، وكان يأتى إلى عمر ابن عبد العزيز وهو بالمدينة قال مجاهد : أتينا عمر نعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه . قال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وهو معلم العلماء . قال سيدنا سفيان الثورى رضى الله عنه : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم ، وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وقال مالك بن زياد : يقولون : (ما لك زاهد ! ما لك زاهد! أى زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر : أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها .

ومن عجائبه ما يروى أنه وقف على راهب فقال له : عظنى ، فقال : عليك بقول الشاعر :

تجـــــرد من الدنيا فإنـــك إنمـا   خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

ودخل يوماً على امرأته يسألها أن تقرضه درهماً يشترى به عنباً ، فلم يجد عندها ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين ، ولا تقدر على هذا ؟ قال : (هذا الحرمان أيسر من معالجة الأغلال غداً فى جهنم) .

انظر لحكمته فى سياسته ولتحريه قطع ذرائع الرشوة واستقامة العمال ، كان يوسع على العامل فى نفقته ، فيعطيه فى الشهر بحسب عمله من مائة دينار إلى مائتين إلى ثلاثمائة (هذا مال كثير فإننا إذا اعتبرنا الدينار نصف جنيه إنكليزى مثلاً كانت الثلاثمائة دينار مما تقرب من مرتبات كبار الحكومة المصرية الآن ، وكانت الحاجات غير الحاجات والضرورات أخف منها فى هذه الأوقات بكثير كما لا يخفى على بصير) ، ويتأول أنهم إذا كانوا فى كفاية تأملوا لأشغال المسلمين ،

وكان يقول فى دعائه : (اللهم إن كان عمر ليس بأهل أن ينال رحمتك فرحمتك أهل لأن تنال عمر) ، وكان يقول : (اللهم اصلح من كان فيه صلاح أمة محمد ﷺ) .

أما موته فقد قيل فيه أقوال كثيرة (وما آفة الأخبار إلا رواتها) ، فمن ذلك أنهم قالوا : إن بنى أمية علموا أنه إذا امتدت أيامه أخرج الأمر عن أيديهم لأنه لا يعهد بعهده إلا لمن يصلح الأمر فعاجلوه .

قيل : إن مولاه دس له سماً فى طعام أو شراب وأخذ ألف دينار فمرض ، فأخبر أنه مسموم ، ثم استدعى مولاه وقال له : ما حملك على ما صنعت ، فقال : ألف دينار ، فقال : هاتها ، فأحضرها ووضعها فى بيت المال وقال لمولاه : اذهب فلا يراك أحد .

قيل له : هؤلاء بنوك (وكانوا اثنى عشر) ألا توصى لهم بشىء فإنهم فقراء. قال : إن وليى الله الذى لا إله إلا هو وهو يتولى الصالحين ، والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين : إما صالح ، فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه ، ثم استدعى بهم فودعهم وقال لهم هذا الكلام ، ثم قال : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم .

قالوا : إنه لما احتضر صرف من حوله فخرجوا وجلس مسلمة ابن عمه وفاطمة زوجته على الباب فسمعاه يقول : « أهلاً بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا جان» ، ثم قرأ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ (١) الآية ، ثم انخفض الصوت فدخلوا فإذا به قضى رضى الله عنه .

* * *

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

(هشام بن عبد الملك) (*)

هو هشام بن عبد الملك بن مروان ولى الخلافة سنة خمس ومائة لما مات أخوه يزيد بن عبد الملك بعهد منه ، كان بالرصافة فجاءته بشرى الخلافة على البريد ، فركب من ساعته وسار إلى دمشق وبويع فيها بالخلافة ، وكان متنعماً ، قالوا : لم يكن فى بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام . يقال : إنه خرج حاجاً فتحملوا ثيابه على ستمائة جمل .

كان محباً للعمران ، مستجداً فى أدوات الزينة متناهياً فى تربية الخيل ، متباهياً بها ، وهو الذى أقام الحلبة وجمع فيها أربعة آلاف فرس . قال المسعودى : (ذلك ما لم يتفق لأحد من الناس لا جاهلية ولا إسلاماً) .

ولع بجودة السلاح وعدد الحرب ولأماتها ، شغف باصطناع الرجال وتقوية الثغور ، وهو الذى شاد المعاقل صيانة للبلاد ، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغيرها رحمة بالعباد .

كان حازماً سديد الرأي غزير العقل عالماً بالسياسة .

قال الهيثم بن عدى والمدائنى وغيرهما : إن السواس من بنى أمية ثلاثة : معاوية رضى الله عنه ، وعبد الملك ، وهشام .

اشتدت فى أيامه الدعوة لبنى العباس ، وثارت روح العصيان فى الأحزاب المرشحة للخلافة ، واستعرت حروب أخرى وقوى الله المسلمين عليها فانتصروا وغنموا أشياء كثيرة ، وفاز عسكر أسد بن عبد الله القسرى فى غزواته ، وقتل خاقان الترك ، ودخل بلاد فرغان وخوقند بعد التعب والنصب والجهاد الجهيد

(*) انظر : تاريخ الخلفاء ٢٦٩ - ٢٧٢ ، تتمة المختصر : ١/٢٧٦ - ٢٧٨ ، تاريخ خليفة بن خياط ٣٤٩ ، البداية والنهاية : ٩/٣٥١ - ٣٥٤ ، البدء والتاريخ : ٦/٥١ ، الأخبار الطوال ٣٣٥ - ٣٣٧ ، الإمامة والسياسة : ٢/١٠٤ - ١١٠ ، العقد الفريد : ٤/٤٤٥ - ٤٥٢ ، المعارف ٣٦٥ ، مروج الذهب : ٣/١٦١ - ١٦٦ .

وقتل الكثير ، وغزا عامله أيضاً نصر بن سيار بلاد « ما وراء النهر » ، ففتح وغنم منها خيراً عظيماً .

فتحت فى أيامه قيصرية الروم بالسيف وغيرها على يد « البطال » الشجاع المشهور ، وغزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وأرمينية (بلاد صاحب السرير) ، ورتب عليه الجزية .

تولى الخلافة والفتن ببلاد المغرب على قدم وساق منتشرة فى أرجاء البلاد ، وكان البربر قتلوا عامله بشر بن صفوان فولى عليها بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ثم رأى أنه ليس برجل زمنه ، فولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب ، وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً وخطيباً مصقعاً ، فاستعمل على الأندلس عبدالرحمن بن عبد الله الغافقى .

كان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية ، فتقدم للغزو فى بلاد «الغالة» (١) ، وانتصر فى غزوات كثيرة رجع منها منصوراً غانماً ، وتقدم حتى وصل إلى مدينة « بردال » أو « برديل » (٢) بفرنسا ، ودخل كثير من تلك البلاد فى الإسلام ، وعزم على فتح بقية بلاد « الغالة » ، فقطع جبال « البرانات » (٣) وفتح الحصون والمدن ، وامتدت عساكر الإسلام فى بلاد « أكيتانية » ، و«بورغونية» .

دهم « الغاليين » ما دهمهم من هذه الجيوش الجرارة ، واشتد بهم ما حل بالبلاد من الخراب والدمار ، فانتخبوا فارساً منهم يقال له « كرلوس » من حاشية الملك كان مقداماً ذا دهاء وفطنة محبوباً عند أصحابه وهو المسمى فى كتب العرب « قارلة » ، وعند الفرنج « شارل مارتيل » ، جمع الأهالى وأمرهم أن لا يعترضوا العرب ولا يعارضوهم ولا يخاطروا بأنفسهم ، وخطب فيهم خطبة لو

---

(١) « الغالة » : القبائل الأصلية الفرنساوية .

(٢) « بردال » : هى بوردو الفرنساوية المعروفة .

(٣) « البرانات » : هى جبال فى الشمال الشرقى للأندلس معتبرة الآن حداً بين أسبانيا وفرنسا ، وتعرف بجبال البيرينيه .

وجدت لها من العرب والمسلمين فى ذلك الوقت أذناً صاغية لكانت ثمناً لكل ما خسرته الأمة الإسلامية للآن .

خطب فى قومه بما معناه :

« الرأى عندى أن لا تعترضوا العرب فإنهم كالسيل المنحدر يجرف ما يصادره وأنهم فى إقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم ، فأصبح الرجل منهم يغنى عن كثرة العدد ، واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع ، فأمهلوهم حتى تمتلئ الأيدى من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض ، فإذا كان ذلك فإنكم تتمكنون منهم بأيسر ما يكون .

كأنما كان منطقه موكلاً ببلاء ظهور الفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، واستعان المسلمون على بعضهم ببعض بل على بعضهم بمن يجاورهم من الأعداء .

نظر هذا الرجل الحكيم ، فرأى أن الخصال التى تحيط الأمة بالكوارث «كالترف والإسراف والتبذير والانغماس فى النعيم الذى أباد الأمم والحضارة التى تؤدى إلى فقد العادات الشريفة ، وتعين على الاضطراب ، وتفريق القوى الجامعة ، وقطع الصلة ، وتجديد الخصومات ، والحسد الذى هو مقام الحدود الحاجزة بين النفوس وبعضها » حائمة بين جيوش العرب وجموع المسلمين ، فقال: اصبروا حتى تتم ويتم له بالحيلة ما لم يتم بالحرب والقوة .

فلما لم يحترز المسلمون من تدرج خصال السوء بينهم ، وساروا بحسب أهوائهم ولم يقتدروا على تقويم المعوج إصلاح الخلل ومداواة العلل ، والظهور بمظهر الترقى الذى أتوا فيه بالعجب العجاب ، وثبت له أنهم فارقوا أدب الدين، فاجأهم هذا القائد بغتة وحاربهم بتفرقهم ، باختلاف كلمتهم ، بسوء رأيهم بإضاعة حزمهم وحرمة دينهم .

جمع « شارل » جنوده مع ما انضم إليهم من جنود جرمانيا التى باتت مهددة بما وقع لجارتها « فرنسا » ، وتقابل بجيشه مع العرب بين مدينتى « طور وبواتييه» بغتة فتلاقى الجيشان ، بل اشتبك الشرق والغرب وتحاربا سبعة أيام انجلت فيها الحال عن هزيمة العرب ، وقتل عبد الرحمن ، وانتشر خبر هذا الانتصار فى كل

أوروبا ، فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب ، وقطع هذا الانكسار على العرب فتح فرنسا الذى كانت تفكر فيه زمناً طويلاً .

فعلت أوروبا مع هذا القائد خلافاً لما كان ينبغى أن يعمل مع أمثاله ، فإن انتصاراته كما قال صاحب « ألف ليلة » مما يكتب « بالأبر على آماق البصر » ، ولكن حالة جهلها فى ذلك الوقت وبلوغها فى الظلم والجهل مبلغاً لا يقدر قدر عليها ، إن « كارلوس » هذا صاحب الدهاء والسياسة لم ينل شكراً على عمله ، بل حكموا عليه بالهلاك وأهانوا أولاده من بعده لأنه استخدم فى هذه الحرب أموال الأساقفة والكهنة (فتأمل) .

(عود) : ومن فضائل هشام : أنه كان لا يدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون أنه قد أخذ من حقه وأعطى منه كل ذى حق .

وبنى فى عهده جامع الزيتونة بتونس ، وهى دار العلم بها للآن (أدامه الله كذلك) ، وهو الذى أقام بها « دار صناعة » [1] لإنشاء المراكب الحربية ، وتم ذلك وغزت المراكب جزيرة صقلية وضرب على أهلها الجزية .

ذهبت جنوده غازية إلى الجنوب حتى جاوز السويس الأقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة ، وهو الذى بنى الرصافة وابتنى فيها قصراً وزاد فى عمرانها وحضارتها .

ظهرت فى عهده بدعة الخارجية فى البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار الأمم إليها ، عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر ووشجت فيهم عروقها ، فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم ، ولما بلغ الخبر بذلك إلى الخليفة هشام عزل عبيد الله عن المغرب ، وكتب إليه بالقدوم ، وعين كلثوم ابن عياض ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتال الخوارج يبلغ (٨٠ ألفاً) من المقاتلين ، وبعد قتال شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدى سبا ، فقامت القيامة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبى والياً على المغرب والتقى مع العصاة بظاهر

---

(١) دار صناعة : (أى ترسخانة) المستعملة الآن وهى محرفة من تلك .

القيروان بمكان يدعى الأصنام فهزمهم بعد قتال أبلى فيه بلاء حسناً ، وكتب إلى الخليفة بذلك ، ففرح فرحاً شديداً ثم ولى حنظلة بن الخطر حسام بن ضرار الكلبى من قبله والياً على الأندلس ، فاستقام له بها الأمر حيناً من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال إلى أن تطرق الخلل إلى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة لوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان آخر خلفائهم والله أعلم .

يرى القارئ أن بلية الأمة الإسلامية فى هذا العهد من أبناء جنسها وملتها أشد من بليتها من أعدائها ، مؤن الجيوش المقاتلة التى جهزها هشام لقتال رعاياه الخارجة عليه أكثر مما جهزه لفتح البلاد المناوبة له ، ولا شك أن الاستظهار على الخليفة ومقاتلة جموعه وجيوشه لا يكون إلا من فساد القلوب والنيات ومفارقة أدب الدين من أمثال هذه العصائب الخارجة .

قلنا ولا نزال نقول : إن الصبغة الدينية تذهب بالتحاسد والتنافس ، وتفرد الوجهة إلى الحق والاستبصار بالأمور والتساوى فى الطلب والاستماتة على العهد، تفنى فى جانبها الأغراض المتباينة ويمحق الباطل ويخذل ، وذلك من شدة تقوى القلوب وسلامة الصدور ونقاوتها ، ولذلك لم يقف للعرب فى أول أمرهم أحد ولم يغلبوا على ما بأيديهم لأن الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم .

لا تجد ضعفاً فى دولة الإسلام إلا وسببه فساد العقيدة ، يدخل هذا الفساد بين العصابة ، وكان سعيها واحداً فى الذب عن الحوزة بأقصى مرامى العز والصولة، فما تلبث إلا وقد فشل ريحها ورئمت للمذلة والاستعباد ، ثم يتمادى هذا الطغيان حتى تكثر ألوان الشر والسفسفة ، وتذهب خلال البر والخير .

إن الذى يريد بالملة الإسلامية خيراً لا يدعوها لشيء من العمل قبل رجوعها إلى أدب الدين ، فإنه علاج لهذه الأمراض المزمنة ، وهو الذى يرد الشيء إلى جنسه وصنفه ، ويخلع عليه مقدار عظمته وقوته ، فمن لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله .

* * *

(الأمير موسى بن نصير(*) ومولاه الفاتح طارق بن زياد(**))

الأمير موسى بن نصير هو مولى عبد العزيز عم الوليد بن عبد الملك ، كان والده نصير على جيوش معاوية رضى الله عنه ، ويقال : إنه بكرى من بكر بن وائل ، ويقال : إنه لخمى .

كانت ولادته فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ويقال : إنه تجهز مع أم البنين حين ابتنى بها الوليد فأنمت مكانه عنده إلى أن بلغ ما بلغ برأيه وإقدام مولاه طارق بن زياد .

كان موسى بن نصير رجلاً عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً تولى أفريقيا ، وغزا الغزوات العديدة ، فلم ينهزم له جيش قط ، وكان كثير المغنم حتى قالوا : لم يسمع فى الإسلام بمثل سباياه قط ، وكان طارق مولاه هماماً مدبراً مقداماً يحمل على مناويه برويته وتدبيره ، فيفل من عزمه ويبيد من قوته .

هما من أشد قوادم أجنحة دولة بنى أمية التى طارت بها إلى الفتوحات العظيمة شرقاً وغرباً يليق بهما أن يشاطرا الخلفاء « الوليد ، وسليمان ، وهشام » الشهرة ورفعة الصيت والتقدم العصرى ، فإنما الدولة برجالها .

هما اللذان امتدت بعنايتهما سطوة الإسلام فى أفريقيا وشهرته فى المغرب وفيما فتح الله من بلاد الأندلس يكفى للدلالة على فضلهما .

إن الأمير موسى بن نصير ما ولى أفريقية فى سنة سبع وثمانين حتى أخذ فى رتق الفتق ولم الشعث ، وأصبح ما خلف مصر إلى البحر المحيط بين برّى البربر

(*) انظر : الحلة السيراء ٣٠٠ ، وفيات الأعيان : ٢/ ١٣٤ ، جذوة المقتبس ٣١٧ ، تاريخ ابن الفرض : ٢/ ١٨ ، بغية الملتمس ٤٤٣ ، تراجم إسلامية ١٠٩ ، البيان المغرب : ١/ ٤٦ .

(**) انظر : نفح الطيب : ١/ ١٠٨ ، البيان المغرب : ١/ ٤٣ ، بغية الملتمس ١١ ، ٣١٥ ، صفة جزيرة الأندلس ٢١٨ ، المعجب ٩ - ١١ ، الكامل : ٤/ ٢١٢ ، تاريخ ابن عساكر : ٧/ ٣٨ .

والأندلس تحت تحدثه ينظم أحوالها ويؤسس نظامها ويقيم قسطاس العدل بين أهلها وينير نبراس الحق فيها حتى أحبه الناس وآثروه على أرواحهم وافتدوه بها .

وإن طارق بن زياد بنى بفتوحه لخليفته من المجد المشيد والذكر المخلد ما لا يبلغه الليل والنهار ولا تعفى جديده الأعصار .

جمعنا سيرتهما فى هذه السطور من غير أفراد لأنه لا تفترق يمين عن شمال ، وإن كنا ألمعنا بشيء من تاريخهما فيما سبق من ذكر خلفائهما .

تقدم الأمير موسى بن نصير إلى مدينة سبتة بعد تمهيده الأمر مع صاحبها «جوليان» الغوطى فصانعه بالهدايا حتى أذعنه للجزية ثم أقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة ، فما رأى بقية البربر ذلك حتى استأمنوا جميعاً لموسى فقبل منهم .

ثم نظر نظرة فى أمر بلاد الأندلس فأدرك عظمتها ، وفكر فى فتحها وأومأ به إلى مولاه طارق بن زياد ، فما هو إلا أن خاضها بالسرايا وعلم عوراتها وفروج ثغورها وتعاريج شطوطها وطالعه بها فجهزه ، وأمره بفتحها فعبر الأندلس بثلاثمائة عربى واثنى عشر ألفاً من البربر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فجمع «رودريك» أكابر دولته وشاورهم واستقر رأى القوم على محاربة العرب فلاقوهم فى مائة ألف نفس فهزموهم ودخلوا البلاد .

يقول قوم : إن السبب فى هذا الانتصار حقد « جوليان » الغوطى صاحب سبتة على « رودريك » ملك الغوط لأنه غشى ابنة له على غير حل مستكرهاً لها غير أن هذا لا يقوله عارف بالخبر ، والغالب أن هذه الدعوى فرية مفتر لأن فتوحات العرب توالت وتعددت ، ولا يمكن أن يحتمل لكل فتح جليل فتح جميل ، وماذا الذى يظن القائل بهذه الفرية أن يبلغه « جوليان » بالعرب من الخير أو الشر ، هب أنه بين لهم مداخل عدوهم وأرشدهم إلى مكامنه وأظهر لهم عورات جيشه ، فماذا يفيدهم والعرب عشرة آلاف نفس تقابل مائة ألف أو يزيدون ، وهم فى بلادهم يصدون عدوهم عنهم .

إن الذى بلغ بأمة العرب ما بلغ هو اليأس الذى يدفع الإنسان إلى كل عمل كما فى هذه الحادثة ، أو شدة الاستمساك بالدين والتحقق مما ادخره الله

للمجاهدين كما وقع فى حرب فارس وملوك الهند وخاقانات الترك وغيرهم من الأقاصرة والأكاسرة الذين هم أشد منها بأساً وأكثر عدداً .

إن اليأس من أشد العوامل فى النفس حتى قال حكيم من حكماء اليونان : «إذا كان لك عدو فلا تيئسه لأنه يفعل بك ما يشاء » .

رأى طارق بن زياد جيوش « رودريك » وانتظامهم وحسن ملابسهم وكمال عدتهم ووفرة عددهم وجودة سلاحهم وما على رؤوسهم من الخوذ وعلى أجسامهم من لأمات الحديد السابغة ، فهاله الأمر وخاف على جيشه القليل ، فأراد أن ييئسه ويقطع عن قومه كل أمل فى العودة ، فأمر بالسفن فحرقت ثم قام بينهم خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر .

واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم أهل البلاد بجيشهم وأسلحتهم وأقواتهم موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيديهم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً فشلتم وذهب ريحكم ، واستعاضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه الفاقة بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، ولم أبدأ فيها بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأقوى من حظى ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على « لزريق » كبير القوم فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى فإن هلكت

بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم لبطل عاقل تكلون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا القوم بقتله فإنهم بعده يخذلون » .

ثم حمل وفتحت البلاد وكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية وإعلاء الكلمة الإسلامية .

التقى مع جيوش « الغوط » ودارت رحى الحرب ساعة انقضّت فيها أبطال العرب ، وكانوا ثلاثمائة على صناديد البربر ، وكانوا عشرة آلاف فبددوا شمل جيش « الغوط » ، وترك « رودريك » مركبته ، وكانت من العاج الناصع ولم يعلم أين ذهب .

وجد طارق أن هذا النصر المبين فرق عسكر « رودريك » وأهلكه وبدده ، وأصبح الشعب فى وجل عظيم ، فبعث رجاله وافتتح « قرطبة » بعد حصارها ثلاثة أشهر « وطليطلة » بعد حصارها والتضييق عليها ، وعقد مع أهلها صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن أراد من السكان وترك لأهل الكتاب كنائسهم وبيعهم ومتعهم بحرية دينهم وشرائعهم ، وأبقى لهم قضاتهم ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به من المدن بجهات « قسطيلة » ، وما زال سائراً حتى وصل فى مسيره إلى جبال أسطوريا ، أى بعد مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه ، ووقف عند مدينة جيجون قرب خليج باسكاليا ، حيث الأقيانوس ، ورجع من هناك إلى طوليد ليلتقى بالأمير موسى بن نصير .

جاء الأمير موسى وألقى العصى وسار بعسكره الضخم يكمل ما ابتدأه طارق ويوفق للناس ما عاهدوه عليه حتى صفا القطر وطمن نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به .

أخذ الأمير موسى بناء على إشارة « جوليان » فى محاربة بعض الغوط الذين لم يخضعهم طارق فتقدم طارق ، وتبعه الأمير بعسكره ، وسار إلى « غديانة » وحصرها ، وأعجب بأعمال الرومان فيها كالجسر ومصانع المياه وأبنية الملاعب الموجودة فى « لستيانة » ، ثم فتحت « سرقسطة » ، واتصل الرعب بأهالى البلاد وأدى ما دهمتهم به جيوش المسلمين إلى أن هذين الفاتحين صارا لا يمران بموضع

إلا فتحت لهما أبوابه حتى انتهوا إلى وادى « ردونة » ودوخ جيش طارق وسراياه البلاد التى لم تخضع لسلطانه .

كان الأمير موسى بن نصير مع تقدمه فى السن وما علاه من وخط الشيب مقداماً يعشق المجد ويصبو لافتتاح البلاد حازماً عاقلاً ذا سياسة جليلاً ، كان فى نيته أن يتقدم فيفتح بلاد فرنسا « المعروفة ببلاد الغالة » ، وإيطاليا المعروفة ببلاد «اللنباردو» ، ثم يمر بجانب « جرمانيا » إلى « هونكاريا » إلى الآستانة إلى آسيا الصغرى ، ويصل لمقر الخلافة .

لم يكن يبنى هذه الصروح على الهواء ، لأن سطوته فى هذا الوقت كانت امتدت إلى أعماق القلوب وعدوى الخوف والفزع من جيوش العرب عمت جميع أولئك السكان ، وسرت من بلد إلى بلد ، ولكن أتاه رسول الوليد يأمره بالحضور ، وكان قد فتح جميع البلاد ولم يبق فى الأندلس بلد لم تدخله العرب إلا « جليقلة » .

أطاع هذا الفاتح أمر خليفته وترك ما بيده ولبى أمره بعد ما ملك بلاداً مثل بلاد الأندلس ، وألقى بينه وبين مقر الخلافة البحر الزخار ، وأصبح فى ملك لا تناله الأقدام والحوافر إلا بشق الأنفس .

ترك بلاداً هو مفترعها ورجالاً هو مستملكهم لا يعرفون غير خيره ، ولا يخافون غير شره ، وفى يده من الذخائر والأعلاق والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهر الامتناع به لنال المرام ، فتأمل لمثل هذا الإخلاص ، وتحدث بمثل هذه الطاعة .

سار الأمير موسى إلى مقر الخلافة ، وولى ابنه عبد العزيز على بلاد الأندلس وهو أول من اتخذ له سرير ملك فيها وكان بأشبيلية ، لأن طارق والأمير موسى لم يتخذا سريراً للسلطنة فيها .

عقد عبد العزيز لأربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين من الهجرة بمحضر أربعة شهود من المسلمين عهدة صلح مع الأمير « طودميرس » على المدن السبع التى كانت له بأن يعطى « لطودميرس » الأمان ، ولا يعارضه فى عمله ولا يعتدى عليه فى ماله ونفسه وعرضه وأولاده وكنائسه على أن يسلم له

المدن السبع ، وأن لا يقبل ولا يساعد أعداء الخليفة ، ولا يكتم من نيتهم شيئاً ، وأن يدفع فى كل سنة عنه وعن كل رجل من « الغوط » ديناراً واحداً وأربعة كيلات حنطة ، ومثلها شعيراً وقدراً من الزيت والعسل وأتباعهم نصف ذلك .

ثم أخذت البلاد فى النمو ، وسمح الأمير موسى وطارق لأخوتهما العرب فى أفريقيا ومصر بالانتقال فانتقلوا إلى « لشبونة » و« موركة » ، وفى أقل من قرن واحد بلغت واردات البلاد من الزراعة والتجارة والصناعة مالاً لبدأ فضلاً عن الجبايات وأموال الفتوحات .

قدر آل العرفان أن ما كان يجبى من الأندلس فى ذلك الوقت يعدل مداخيل أوروبا ، وهذا النمو إنما هو من نتائج الحرية وعدم التعرض لأحد فى ماله وعرضه ونفسه ، وقد أيقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين إلى العلوم والصنائع ، وظهر فضل أولى النباهة والذكاء ، وأحب أهل أسبانيا العرب فآخوهم ، وارتفعت الخلافات من بينهم حتى كانوا يختتنون مثل العرب ويمتنعون عن المحرمات المحرمة عندهم ، فدعاهم من شذ عنهم من المجوس « مازارابى » أى أنصاف عرب .

رزق الله بنى أمية بالفاتحين من الخلفاء وبالخيرة من القواد ، ففى تلك الأزمان امتد حكمهم مسافة مائتى يوم من المشرق إلى المغرب ، وكانت آى القرآن تقرأ فى سمرقند ، كما تتلى فى قرطبة ويتلاقى الهندى مع السودانى فى مكة للحج وكلاهما يدين لبنى أمية ، وظهرت على كل المماليك قدرة وغنى ، وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة أقسام من الأرض : آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ، ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل «طوروس» على البحر الأبيض وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأكاسرة وما عجزت عنه الأكاسرة ، ومن الجزر : قبرص ، وأقريطش ، ورودس ، وجزائر بليارة ، وشمال أفريقيا ، والبلاد الممتدة من بوغاز جبل طارق إلى برزخ السويس. وقسموا سواحل البحر الأبيض إلى حكومتين : إحداهما بالمغرب تشتمل على الأقاليم القديمة اليونانية ، والأخرى بالمشرق وهى عمالة مصر وبرقة البحرية ، وأخذت الجزية التى قررها سيدنا عمرو بن العاص من بلاد النوبة ، كما أخذت من الهند والصين كما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى ، وكل ذلك على

قواعد العدل وقسطاس الحق حتى صارت دمشق فى نظر المسلمين كأنما هى روميا فى نظر المسيحيين .

كانت دمشق ثانى مقر للخلافة الإسلامية بعد المدينة المنورة ، وكما كانت تتيه على البلدان بمياهها وأشجارها ورياحينها ، كذلك كانت تعتز بمقام الخلافة فيها .

فيها بقية آثار الملوك الكنعانيين والروم وآل جفنة من العز والعمارة ، فكانت زينة الدنيا وأهلها أحسن الناس خلقاً وخُلُقاً ، جمعت بين العمال والمجان والزهاد وفيها لكل شيء من ذلك سبب .

وجامع الوليد المعروف بالجامع الأموى قائم فيها وهو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية .

إلى غير لطائف البلاد الطبيعية ومحاسنها الوهبية التى لا يحصيها لسان ولا يصفها بيان .

هذا وقد كدنا أن نخرج بهذه الأوصاف وغيرها عن معنى الترجمة التى قصدناها ، وإنما أردنا أن نبين للقارئ كيف كان مقام الخلافة فى الشام إلى عهد هشام .

* * *

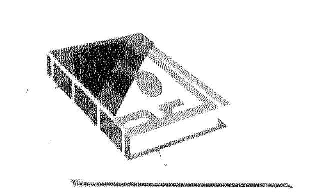
فهرست الجزء الأول من كتاب « حماة الإسلام »

* * *









طباعة . نشر . توزيع

٢٢ ش سكة المدينة ناهيا - جيزة

ت : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧